"مقالة: ما معنى أن اللّه جعل المسلمين أمة وسطًا ؟

للشيخ محمد الغزالي - قراءة في بلاغة النص "

إعداد

د/ حنان سعد سيد أحمد سرواح

المدرس في قسم البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات المنصورة

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

مقالة: ما معنى أن اللّه جعل المسلمين أمة وسطًا ؟
للشيخ محمد الغزالي - قراءة في بلاغة النص

حنان سعد سيدأحمد سرواح
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، المنصورة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني: Hananserwah75.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يهدف البحث إلى بيان أن الوسطية في فكر الإمام محمد الغزالي هي منهج الإسلام وروح دعوته، سرت في جميع أوصاله عقيدة وشريعة وأخلاقاً، فإن انتزعت منه . بجهل أو غلو . فَقَدَ هذا الدين حياته وخيرته وعدله، وإذا نظرت إلى هذا المصطلح في فكر الإمام محمد الغزالي وجدتَ أن الوسطية ارتبطت وقامت على ركائز عدة، منها: الخيرية ، والعدل، والشمول والشهادة والأصالة والمعاصرة ، ولطالما أرسلت رائد الطرف في كتب الشيخ وتصانيفه مقلبةً أتلو رشيق معانيه، وأحلّل دقائق مبانيه فوجدت أن منهج الوسطية قد انطبعت به كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزيئات التي تناولها الشيخ وناقشها، وقديما قالوا: " المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر". وكما قال الجاحظ: " شعر الرجل قطعة من كلامه وظنه قطعة من عقله واختياره قطعة من علمه" أما عن الدراسات السابقة فلم أجد مما تيسر لي من أسباب البحث على دراسات علمية اهتمت بتراث الشيخ من الناحية البلاغية، إذ إن معظم الدراسات السابقة تناولت تراث الشيخ من الناحية الشرعية والعقائدية، وأوصي بإدراج نصوص الشيخ ومن في طبقته من العلماء الذين جمعوا بين الفكر والأدب إلى الدرس البلاغي حتى تتحقق الفائدة بطرفيها بالجمع بين دراسة اللغة والحفاظ عليها وبين تربية النشئ والأجيال على ثوابت الدين الصحيح.

الكلمات المفتاحية: الغزالي، الوسطية، الأصالة، المعاصرة، مقالة، بلاغة النص.

Article: What does it mean that God made Muslims a middle nation? By Sheikh Muhammad Al-Ghazali - A reading in the eloquence of the text

Hanan Saad Said Ahmed Sarwah
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Mansoura, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: Hananserwah75.el@azhar.edu.eg

Abstract: The research aims to show that moderation in the thought of Imam Muhammad Al-Ghazali is the approach of Islam and the spirit of his call, which is carried in all its parts by faith, law and morals, and if it is extracted from him - through ignorance or exaggeration - this religion loses its life, its good and its justice, and if you look at this term in thought Imam Muhammad Al-Ghazali found that moderation was linked and based on several pillars, including: charity, justice, comprehensiveness, martyrdom, authenticity and modernity. And the origins, features and particles that the sheikh dealt with and discussed, and in the past they said: “A person is hidden under his tongue, and when he speaks, he appears.” As Al-Jahiz said: “A man’s hair is a part of his speech, his thought is a part of his mind, and his choice is a part of his knowledge.” The legal and doctrinal aspect, and I recommend the inclusion of the texts of the Sheikh and those in his class of scholars who combined thought and literature to the rhetorical lesson so that the benefit is achieved on both sides by combining the study of the language and its preservation with the education of young people and generations on the constants of the correct religion.

Keywords: Al-Ghazali, Moderation, Originality, Contemporary, Article, Eloquence of the text.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسله مبشرين ومنذرين، وجعل العلماء ورثةً لهم. أُخذ الله عليهم العهد والميثاق بالبيان والتبليغ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فقد اقتضت مشيئة الله– تعالى– أن يبعث أنبياءه مصابيح دجًى، ورواءً كلما أجدبت الأرض، وخيَّم عليها ظلام الكفر والإلحاد. فأنبياء الله ورسلُه هم أدواءٌ يُداوى بهم علل الأمم وزيفها وانحرافها، وقد يختلف هذا الدواء كمًّا وكيفًا باختلاف كل أمة زمانًا ومكانًا .

حتى أشرقت رسالة الإسلام، فكانت مغايرةً لما سبقتها في عمومها وخلودها. ولكنها في جوهرها دواء شأنها شأن باقي الرسالات السابقة. إذن فما سر هذا الخلود؟

إن لكل شيء حقيقةً وقلبًا، حقيقةً يتوهج بها وتميزه، وقلبًا يضخ فيه حياته وديمومته. فإن خمد القلب، وسكن خبا سطوعُها، وباتت مطموسة مظلمة. يضلُّ مَنْ كان في نورها سائرًا تتقاذفه مجاهل الزيغ، وتترامى به ذوي الأهواء. وواتتْ ذئابُ الفتن فرصتها، فهجرتْ أوكارها مسرعة تَضلُّ وتُضلُّ.

والوسطيةُ هي قلبُ هذا الدين وحقيقته وضمانة الخلود لرسالته وأبديتها إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، فمن تنكَّب طريقها ضلّ وأضلّ ، يقول الحق – ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

وهى منة امتنَّ الله بها على هذه الأمة إن قامتْ بدورها .

(١) سورة البقرة :١٤٣.

ومما آلمني وآلم كل حُرّ، هذا الدَّخن الذي علا الأفق مؤخرًا، والذي أثارته ألسنة الحقد الدفين، مُقتاتي الفتن، فرموا الأزهر بالتخلف والرجعية، ووصموه بأنه مَحضن للإرهاب والتطرف. وأزهرنا منه بَراء؛ لذا كان التصدي لهؤلاء واجبًا شرعيًا؛ إذ الفكر لا يُقارع إلا بالفكر، والبهتان لا يدحضه إلا الحجة والبرهان. ومن ثَمَّ فقد عمدتْ قيادة الأزهر الحكيمة إلى تراث أحد أبنائه النابهين – وهو الشيخ محمد الغزالي– فقاموا بنشر كتابه "مائة سؤال عن الإسلام"(١) في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٨م؛ فقد كان تبيانًا وتبصرةً لأولي الألباب، صادحًا بالحق: هذا ديننا.

مما حدا بشوقي إلى الاطلاع على هذا السفر الجليل، وآثرتُ مقالة: "ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطًا؟"(٢) ؛ لما ارتأيتُ في اختيارها مطابقةً لمقتضى الحال، والتي أزعم أنها ناطقة مخرسة قاطعة لكل لسان أفّاك مزور، فهي كالقول الفصل الجامع لوسطية الإسلام وسماحته. فجعلتها رأسًا بنيتُ عليها بحثي؛ كونُها مثلت انعكاسًا لفكر الأزهر ووسطيته في تراث الشيخ الغزالي. ورأيتُها تمثل عصارة هذا الفكر عند الغزالي في عبارة موجزة مونقة، والذي بثّه في قضايا كتبه ومؤلفاته.

فتناولتُها بالدراسة البلاغية وعرضتُ لأسلوبها وبنيتها التركيبية واللغوية، والفنون التي تضافرتْ في تشكيلها وصوغها.

فجاء البحث بعنوان:

«مقالة: ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطًا ؟ – قراءة في بلاغة النص».

كذلك ما يؤول بهذه الدراسة إلي توسعةِ الدرس البلاغي، وهو مطلبٌ

---

(١) كتاب مائة سؤال عن الإسلام – للشيخ محمد الغزالي– ط نهضة مصر – ط٤، ٢٠٠٥م.

(٢) المرجع السابق– ٩٤.

جليلٌ حثَّ عليه الإمام عبد القاهر حين « أدخلَ كُلَّ كلمةٍ مصقولةٍ ميدانَ النظر البلاغي ، ولم يجعل هذا الميدان مقصورًا على الشعر والنثر الأدبي»(١).

والشيخ حين تقرأ له تُبهرك لغته ونسقه الفكري، وبراعة الصياغة وسهولة العبارة وإحكامها وجريانها على فطرتها غير مرهقة بشيء مما يرهقها به أهل الصنعة.

وهذه المقالة غيضٌ من فيض ، وشهادة ناطقة ببلاغة الغزالي، وقدرته على الإيجاز والتكثيف والتقطير.

كذلك دفعني إليه عدم الوقوف على دراسةٍ تناولتْ تراثَ الشيخ الغزالي بلاغيا، فجُلُّ الدراسات السابقة تناولت آثار الشيخ فكريًا وعقائديًا.

هذا، وقد اتبعتُ في البحث المنهج التكاملي الذي يهدفُ إلى تحليل ألفاظ المقالة وعلاقتها بالمعاني، والكشف عن الأسرار البلاغية، والتئامها مع الغرض العام.

وقد تكون البحث مما يلي:

أولًا: **المقدمة**: تناولتُ فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهجه، وخطته.

ثانيًا: **التمهيد**: تناولتُ فيه نُبذة عن حياة الإمام – رحمه الله – وتراثه العلمي مبرزة تأصيلًا لمعنى الوسطية ومرتكزاتها عند الشيخ .

ثم ذكرتُ الدراسات السابقة التي استطعتُ أن أعثر عليها، والتي تناولت تراث الشيخ بالدراسة .

ثالثًا: **صلب البحث**:

تناولتُ فيه دراسة المقالة دراسة بلاغية متتبعةً ومبينةً طريقة تفكير

---

(١) مدخل إلى كتابيّ عبد القاهر، د. محمد محمد أبو موسى – ٢٧ .م– وهبة، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

الإمام، ومقدار انسجام الفكرة، وبُعدها عن التفكك في أسلوبه، وما حواه النص من صور، وبيان جمالها، وارتباطها، وتسلسلها حتى خلصتُ إلى إظهار طابع الإمام، وأسلوبه في تكوين بناء النص، وقدرته على الربط بين فقراته، والتناسب بين أجزائه، وقسمتها إلى:

المبحث الأول: وينقسم إلى محورين:

المحور الأول: نص المقالة « ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطا؟ »، ودافع الشيخ الغزالي إلى تأليف الكتاب مع إطلالة على منهج الشيخ .

المحور الثاني: طرائق تشكيل النص في انحراف اليهود والنصارى عن الصراط المستقيم وزيغهم بين الإفراط والتفريط.

المبحث الثاني: قسمتُه إلى محورين:

المحور الأول: طرائق تشكيل النص في تميّز الإسلام بوسطيته وشمولها لشؤون الدين والدنيا.

المحور الثاني: طرائق تشكيل النص في إظهار الحزن والأسى على واقع المسلمين بين انتكاسهم عن التمسك بحبل هذا الدين ، وارتكاسهم في ذيل الأمم .

رابعًا: **الخاتمة**: ذكرتُ فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، وأهم التوصيات.

ثم فهرس المصادر والمراجع، وأخيرًا فهرس الموضوعات.

أسأل الله التوفيق إلى الصواب، والعصمة من الزلل إنه ولي ذلك والقادر عليه.

التمهيـــد

ويشمل:

١) نبذة مختصرة عن حياة الشيخ الغزالي، وتراثه العلمي.
٢) تأصيل مفهوم الوسطية لدى الشيخ.
٣) الدراسات السابقة.

أولًا : نبذة مختصرة عن حياة الشيخ ، وتراثه العلمي:

١. الشيخ محمد الغزالي « السيرة الذاتية والمسار العلمي ١٩١٧ – ١٩٩٦م »

ولد الشيخ – رحمه الله – في يوم السبت ٥ من ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ الموافق ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧م بقرية « نكلا العنب » مركز إيتاي البارود – محافظة البحيرة.

كان والده – رحمه الله – تاجرًا عُرف في قريته بالأمانة وحسن الخلق، كما كان حافظًا لكتاب الله . فحرص على تحفيظه القرآن، وألحقه بكتاب القرية، فكان قد أتم حفظه وهو ابن عشر سنين، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الأزهري سنة ١٩٢٨م؛ ليحصل على الشهادة الإبتدائية بعد أربع سنوات في سنة ١٩٣٢م، ثم شهادة الكفاءة بعد ثلاث سنوات، ثم الثانوية بعد سنتين (١٩٣٧) م، وفي العام نفسه يلتحق الشيخ بكلية أصول الدين بالقاهرة؛ لينال بعد أربع سنوات شهادتها العالمية سنة١٩٤١م؛ ليتخصص في الدعوة والإرشاد، ويحصل على إجازته فيها سنة ١٩٤٣م[١]؛ ليعيَّن إمامًا وخطيبًا بمسجد « القبة الخضراء » بوسط القاهرة ، كما عمل مفتشًا، ثم واعظًا في الأزهر الشريف وترأَّس مجلة « النور » لمدة سنتين (١٩٤٦ – ١٩٤٧م).

وتدرّج في العمل بوزارة الأوقاف حتى صار مديرًا للدعوة، ثم وكيلاً للوزارة، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية، فعمل أستاذًا بجامعة أم القرى، وجامعة الملك عبد العزيز، كما عمل بكلية الشريعة بقطر ، ورأس جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر.

ظل الشيخ رابضًا في ميدان الدعوة بقلمه ولسانه حتى وافته المنية في

---

(١) محمد الغزالي بقلمه – موسوعة خطب محمد الغزالي ١٣/١، دار الاعتصام – بالقاهرة ط١، ١٩٩٠م .

– الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – د.عمارة– ٣ – دار السلام للطباعة – ط١، ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م .

مؤتمر « حول الإسلام وتحديات العصر » بالمملكة العربية السعودية في يوم السبت ١٩من شوال ١٤١٦هـ الموافق ٦ مارس ١٩٩٦م ودُفن – رحمه الله – بالبقيع في المدينة المنورة عن عمر قارب الثمانين(١).

*** *** ***

ثانياً: تأصيل مفهوم الوسطية في فكر الشيخ محمد الغزالي:

إن الوسطية هي منهج الإسلام وروح دعوته، سرتْ في جميع أوصاله عقيدة وشريعة وأخلاقًا. فإن انتزعت منه – بجهل أو غلو – فَقَدَ هذا الدين حياته وخيريته وعدله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢).

وإذا ما طرقنا هذا لمصطلح في فكر الإمام محمد الغزالي وجدتَ أن الوسطية قامت على ركائز عدة، منها: الخيرية ، والعدل، والشمول والشهادة.

ولطالما أرسلتُ رائد الطرف في كتب الشيخ وتصانيفه مقلبةً أتلو رشيق معانيه، وأحلّل دقائق مبانيه، فوجدت أن منهج الوسطية قد انطبعت به كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزيئات التي تناولها الشيخ وناقشها، وكما قال الجاحظ: « شعر الرجل قطعة من كلامه وظنه قطعة من عقله واختياره قطعة من علمه»(٣)

كذلك تجد إرث الشيخ مخطوطًا ومنطوقًا ينطق في بيانٍ بوسطية الشيخ واعتداله، بل إنه يوجز الحديث عن الإسلام في وجازةٍ واكتفاءٍ بقوله : « إنه

---

(١) موقف الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي من السنة النبوية . محمد سيد أحمد شحاته – ٤٣ – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – ط ، ٢٠٠٩م .

(٢) سورة البقرة – ١٤٣.

(٣) يُنظر البيان والتبيين ، تأليف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، ٨٣/١ – دار الهلال – بيروت– ١٤٢٣هـ .

قلب تقي، وعقل ذكي»

وهو مما انعكس على كل قضية عالجها وتناولها بقلمه، فقد كان الحق دومًا هدفه الذي ينشده مستنيرًا على درب بحثه بنور قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] وبقوله – ﷺ: « إن الدين يُسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ...» [2].

ثالثاً: الدراسات السابقة:

لم أجد مما تيسر لي من أسباب البحث على دراسات علمية اهتمت بتراث الشيخ من الناحية البلاغية، إذ إن معظم الدراسات السابقة تناولت تراث الشيخ من الناحية الشرعية والعقائدية.

*** *** ***

(١) سورة البقرة – ١٤٣.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تأليف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي الدمشقي الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) تحقيق : محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين ١٤٩/١- مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة المنورة – ط١، ١٤١٧ هـ -١٩٩٦م.

الـمبحث الأول

وينقسم إلى محورين:

الـمحور الأول: ويشمل:

١) إطلالة على أسلوب الشيخ ومنهجه في كتابه، والدافع إلى تأليفه .

٢) نص المقالة .

الـمحور الثاني:

طرائق تشكيل النص في انحراف اليهود والنصارى وزيغهم عن الصراط المستقيم بين الإفراط والتفريط.

المحور الأول

١ـ إطلالة على أسلوب الشيخ ومنهجه في كتابه، والدافع إلى تأليفه :

يُعد هذا الكتاب القيم من أدب المقالة أخرجه الشيخ ليضيف به حلقة إلى سلسلة كتبه من هذا النوع أو النمط مثل : (مقالات الشيخ الغزالي في الدين والحياة . سلسلة من ستة أجزاء، الحق المرّ ، .....) وهذه المقالات وإن شابهت تلك الكتب في الموضوع والحيز وأسلوب التناول ، لا تدخل تحت عنوان من تلك العناوين؛ لأنها كانت أجوبة لأسئلة معنية وُجهت إليه . فهي تخالفها في المناسبة وإن وافقتها في موضوعها وخطتها.

والكتاب يشتمل على مائة مقالة ناقش الشيخ في كل منها قضية محورية من قضايا الدين .

أسلوب الشيخ الغزالي في الكتاب:

وعنوان الكتاب يلخص موضوعاته، وحيثما نظرت في الكتاب وجدتَ الشيخ يتناول قضاياه بما تميز به من عمق الفكر ، وأصالة الرأي ، وتقصِّي الموضوع، وبلاغة الأسلوب، وقدرته على مخاطبة العقل والوجدان معًا ، فانعقدت مقالات الكتاب بنسيج السؤال وإجابته .

وهو هاهنا أبلغ منه في أي كتاب ذي موضوع واحد وفصول مترابطة، فهو– رحمه الله – حين يكتب بحثًا في مقال تتجلى أفضل خصائصه من الدقة والعمق والإحاطة. إذ كل مقالة من مقالات الكتاب تصلح لأن تكون « مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للإجمال ولا يتسع للتفصيل ، فكل مقالة في موضوع هي كتاب صغير يشتمل على النواة التي تنبت منها الشجرة لمن شاء الانتظار»[١].

---

(١) كتاب يسألونك . محمود عباس العقاد . ٧ . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . ط٢ . بدون.
يُنظر، الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود . مسعود بن موسى فلوسي . ١٩ . مكتبة وهبة . القاهرة . ط١ ، ٢٠٠٣م .

وأنتَ إن تأملت عناوين مقالات الكتاب، وجدتَ الشيخ قد أفرد لكل منها كتابًا كاملاً منفردًا من قبل . فأتى كتابه كأنه تلخيص لمطولات، وتقريب لمتفرقات وقد بلغت الغاية من التكثيف والإدماج والإيجاز.

ولا يستقيم وصف الكتاب بالبلاغة والفصاحة إلا إذا تمت عنده الملكة التعبيرية التي تجمع بين طرفي الإيجاز والإطناب ومراعاة مقتضى الحال.

ومع هذا الإيجاز يكاد الشيخ يرسم أفكاره لا يكتبها، بل يُخيل إليك في كثير من الأحيان أنك تتأمل فيما يكتب صورة رمزية ناطقة لما يجول في ذهنه.

منهج الشيخ في الكتاب:

عندما جلتُ بطرفي في الكتاب وجدتُ أن الشيخ يطرح الموضوع طرحًا بسؤال ثم يطرقه من أطراف شتى في مقدمة مؤلفه عن دافع إنشائه هذا الكتاب بقوله: « إن هذا العلم خزائن ، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه ! وما يدرينى ؟ لعل الله يؤتيني الرشد ويلهمني الصواب، فأكشف ظلمة، أو أمحو حيرة، أو أطفئ فتنة، أو أثبت حقا يعصف من حوله الباطل ... وقررتُ أن أجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل»[1] وفيه ما تراه من المجاز العالي البليغ، فكانت كل مقالة فصل الخطاب في موضوعها وفكرتها.

ومَعين الشيخ لا ينضب من معارف العلوم والدين والأدب وشتى أصناف المعرفة الإنسانية؛ لذا احتشدت المقالات بالأدلة والبراهين ، وكلها تتسم بسعة العلم والتصحيح، وإفهام ما كان غامضًا، وهداية مَن كان حائرًا ، وكلها تهدف إلى التمكين للإيمان في القلوب، وتحبب الفضيلة إلى النفوس وإصلاح المجتمع .

ويلمس القارئ وهو يتنقل في الكتاب من موضوع إلى موضوع أن الكاتب يكتب من قلبه، لذا تراه ينفعل أحيانًا ويثور ثورة المصلح الصادق .

---

(١) مائة سؤال من الإسلام – مرجع سابق – ٣ .

وعند مطالعة الكتاب استطعت تحديد خصائص أسلوب الشيخ في مباني كلامه، وطرق رصفه وضروب سَبكه، وحاولت أن ألحظ أحوال صياغة الكلام وخصائص تراكيبه ومعانيه. وعندما اتضحت لي معالم هذا الأسلوب اتخذتُ مقالة: «ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطًا؟- أنموذجًا » للتطبيق بما لمحته من طابعه الأدبي؛ إذ إن موضوعًا كهذا الموضوع المحيط لعرضة على التشعب والتطويل ، فكانت دراسة المقالة أنموذجًا سبيلًا للإيجاز مع الاكتفاء . تحريتُ الإلمام بأسلوب الشيخ وضروب صياغته لمعانيه ، وطرائق إبانته عن مقاصده للإجابة عن السؤال عنوان المقالة ومحور الدراسة.

٢ـ نَصّ الـمقالة :

" ما معنى أن اللّه جعل الـمسلمين أمة وسطاً ؟ "

قالوا من قديم : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسواء اطّرد هذا القول أم لم يطّرد فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط، والناس يعانون كثيرًا من الغلو الشديد والإهمال البارد .

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوي للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى ، وأن المسيحيين يرون التقوى في الرهبانية والزهد واحتقار المال ، حتى قيل في كتبهم: لأن يلج الجمل في سم الخياط أقرب من أن يدخل الغني ملكوت السموات !! .

وجاء الإسلام فرفض المسلكين، وعدَّ المال وسيلة لما بعده، وقال النبي ﷺ : « إن هذا المال خضر حلو! ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة » .

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين في تعاليم اليهود، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب، وكأن مرضاة الله لا تتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله .

وقالوا: إنه ترك امرأة اقتيدت متهمة بالإثم ، وقال لليهود: من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها. !

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس ! ويسَّر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه ! وأقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذي المجتمع بالإصرار عليه !!

أي إنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم المعصية النادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق ! يقول علي بن أبي طالب : الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكره !

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى ، ولكنه كما روى الإمام مالك عنه يقول: لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية.

والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم ؟ ، فقال : تركنا محمد في أدناه ، وطرفه في الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعني طرقا شتى . وثم رجال يدعون من مرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت بهم إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1].

والغلو في الدين قد ينتج عن الدين الصحيح لذلك يقول الله تعالى لنبيه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[2].

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهي بالجحود والتمرد .. يقول الشيخ محمد عبدالله دراز : « كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذى لا يميل إلى أحد الجانبين . ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التى أشارت إليها أحاديث افتراق

(١) الأنعام : ١٥٣ .

(٢) المائدة : ٧٧ .

الأمة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التي أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم .. إلخ ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين».

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا جميعًا ، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضني ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء شرة – حماسا ونشاطا – ولكل شرة فترة – برودا وعجزا – فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه » .

وفي شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير، ويحب الإنفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾[1].

في مجال العلم الديني رأيت ناسا متبحرين في المنقول والمعقول بهم فقه واسع، ومحفوظات كثيرة، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضاء، وقدمت إليه امرأة متهمة بالزنى ، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له، وحكم برجمها ؛ لأنها متزوجة !!

قلت: هذا منهج يهودي ، فإن رسول الله ﷺ كان يرشد المتهم ليفر من العقاب، ويتراجع عن قراره .. ويتحايل عليه لينصرف آمنًا .. أما هذا القاضى فإنه احتال على المذنب ليقتله ! ليس هذا أسلوب الإسلام ، والعلة أن جانبًا آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلا ، ولو ألف «علم القلوب» وذاق الجانب العاطفى من الإسلام لستر وغفر يستره الله ويغفر له !!

والمحزن أن هناك انفصالا فى علومنا الدينية بين الفقه والتصوف ، مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانا إلى الجنون ، وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتى الأصم .

---

(١) الفرقان : ٦٧ .

والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلًا أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته ! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد !

البيت هو المحضن الذى تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده، وليس البيت سجنا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ، وليس ملتقى عابرا للأبوين والأولاد كما تألف ذلك أوربا حيث الأسر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ، فهي تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية ، وقد تقاتل إنْ اقتضى الأمر الدفاع ، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية .

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه ... في الوقت الذي أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافًا شائنًا في الذوبان خارج البيت، وضد رسالتها الأولى.

لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين معًا .

وفي الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية ، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين ..

وبذلك ضمن إنتاجا غزيرًا؛ لأن الحوافز قائمة ، وحفظ الجماعة من التفكك لأن التواصي بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة .

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها، فإن الله سائلهم عن الهدايات التي بلغتهم: هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهي موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة ﴿ **فَكَيْفَ**

﴿ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[1]؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة ، وسيدلى بهذه الشهادة أمام الله ، كما أن المسلمين سيُسألون: هل عملوا كما تعلموا؟ إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد!

وهم شهداء على الأمم؛ لأنهم حملة الرسالة العامة، ومبلغوا «الوسطية» التي شرحناها آنفا. وكما كان محمد أستاذًا لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!!

ذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2].

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت في البلاغ والتعليم! بل فرطت في العمل والتأسي بنبيها، بل لقد أصبحت اليوم ذيلًا لأحزاب الميمنة والميسرة في الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم[3].

وهذه المقالة هي مناط البحث والدراسة، ولا يعنى هذا أن الشيخ لم يطرق هذا الموضوع في كتبه وتصانيفه، لكنه لم يُجرد كلامًا عن وسطية الإسلام كمسلكه في هذه المقالة. وإنما صدرتْ عنها كل كتبه وخطبه ومحاضراته. إذ اتسمت وطُبعت بهذا المنهج الإسلامي القويم .

---

(١) النساء: ٤١ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) مائة سؤال عن الإسلام-٩٤.

المحور الثاني

"طرائق تشكيل النص في انحراف اليهود والنصارى وزيغهم عن الصراط المستقيم. بين الإفراط والتفريط"

توطئة:

كما هو معروف أن النص الأدبي شعرًا كان أو نثرًا إنما هو جسدٌ واحد متكامل، وجزء لا يتجزأ أحكم مبدعُه رباطه وروابطه، وأفرغ فيه خواطره وأفكاره وهواجس النفس يفري بعقله وقلمه عن وجوه الحقائق فريًا، حتى تتمكن أداة التحليل البلاغي من عملها ، فنتعرف على صنعة البيان وأسراره ومكوناته وتحليل هذه المكونات وتمحيصها وتذوقها، وبيان تشابك المعاني وروابطها وحركة المعنى .

لذا عمدتُ إلى تقسيم المقالة إلى ثلاث فقرات أو أغراض، وهى:

١) انحراف اليهود والنصارى وزيغهم عن معالم الصراط المستقيم بين الإفراط والتفريط. ولبناتها: المقدمة . والفقرة من قول الشيخ : « وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة ... حمدوا الله على العافية ».

٢) تميّز الإسلام بوسطيته وشموله لشؤون الدين والدنيا. ولبناتها: من قوله: « والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ... ونجّت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة » .

٣) إظهار الحزن والأسى على واقع المسلمين . ولبناتها : من قوله : « والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم ... إلخ المقالة » .

ولعل الظن يسري في نفسك بأن في هذا التقسيم تقطيعًا لأوصال النص، ونقصًا لبنائه اللغوي وتفكيكًا لنسيجه حتى صار ركامًا؛ فرجع إلى حالته قبل أن تدخله صنعة صاحبة، ولكننا في دراستنا سنعيد البناء كلمة كلمة نصطنع السبيل الذي هدى إليه الإمام عبد القاهر في تحليل النص الأدبي « حين

جعل من تفكيك الروابط اللغوية، وإعادة تركيبها سبيلاً إلى كشف المخبئات البيانية التي كَمُنت وراء حجب هذا التركيب وهذا البناء»[1].

وهكذا نلج عن بصيرة ميدان فقه النص، نجتلي أسراره وخفايا دلالاته ونرى هيئات المعاني في تخلقها وترابطها، وكيف يُبنى بعضها على بعض؟ ويتفرع بعضها من بعض؟ أم جاءت معاني مستقلة كل معنًي فيها هو أصل بنفسه؟

وبذا نقف على الملامح الأسلوبية للغزالي ونتتبع ذخائر عقله وخواطر نفسه وصورها. كيف يسير بها في دروب اللغة يسبر أغوارها وهو يتلمس طرائق مبانيه وصياغة صوره وسبك معانيه؟!

وقفة بلاغية في ظلال عنوان المقالة :

" ما معنى أن اللّه جعل المسلمين أمة وسطًا ؟ "

وفيه – كما ترى – سلوكًا قصده الشيخ في تناوله جميع قضايا الكتاب بطريقة السؤال والجواب. وهذا مما يجعل النفوس تتشوق وترغب في معرفته وقراءته. وبناء العنوان على التساؤل وإعراضه عن محض الإخبار له قيمته البلاغية، فهو أصل من أصول الاستحسان في مستهل الكلام شعرًا أم نثرًا .

وهكذا تجد السؤال يخاطب كل عقل ويستفزه، ففيه الإيقاظ وإثارة حركة الفكر وانبعاث الحس حتى يكون مُستوفزًا ليلتفت بهذا الحضور الواعي إلى السياق، فيستوعبه ببراهينه واستدلالاته حتى يجد الإقناع إلى النفس سبيله دون وحشة أو استغراب يؤدي إلى رفضها فضلًا عما فيه من إذكاء الأسلوب وشد أسره وتماسكه .

وتأمل صيغة السؤال وفحواه، وكيف عَرَضَ لقضية الوسطية على أنها حقيقة لا جدال فيها ، ففيه إقرار بأن المسلمين هم أمة وسط، فالله هو الذي اصطفى وهو الذي اجتبى.

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر –مرجع سابق –١١٤ .

إذن سيكون مسار المعنى وحركته في النص لبيان وتجلية ماهية الوسطية وتميّز أمة الإسلام بها ومعالمها والغاية منها. إذ إن الموهوب لا يُفضل لذاته ولا يوهب إلا لغاية يكلف بها من أنعم عليه وهو الله – ﷻ.

تحليل المقدمة :

يقول الشيخ: (قالوا من قديم : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين، وسواء اطَّرد هذا القول أم لم يَطرد فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط، والناس يعانون كثيرًا من الغلو الشديد والإهمال البارد) [١].

تأمل براعة الاستهلال[٢] حين هيأ لمعناه بأسلوب الحكاية (قالوا...)، ثم أكد المقول فجعله من قديم إشارة إلى كون المقول حقيقة ، ثم إلى عراقة هذه الحقيقة وإيغالها، فهي ضاربة بجذورها في أعماق الزمن . اعتادها الناس وألفوها . ولا أخبرك كيف بالإلف إذا استبد بالعقول، واستوطن القلوب ؟! إنه يُصم ويُعمي. تصير معه العادة عبادة ، والعرف عقيدة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[٣]

فالمقول إذًا حقيقة تواترت في العقول ورسخت في النفوس توارثتها البشرية جيلاً من بعد جيل وكأني به يشير إلى الفطرة من غير بنان ويُلمح

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام . ٩٤ .

(٢) براعة الاستهلال : هى أن يشير المصنف في ابتداء تأليفه قبل الشروع في المسائل بعبارة تدل على المرتب عليه إجمالًا وهي كون ابتداء الكلام مناسبا للمقصود وهى تقع في ديباجات الكتب كثيرًا .

التعريفات للشريف على بن محمد الجرجانى – ٦٣ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط٣ ، ١٤٠٨– ١٩٨٨م.

(٣) سورة البقرة : ١٧٠ .

إليها دون أن يُسميها قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[1] ومن ثَمّ فلا حاجة إذًا لبرهان أو إقامة دليل، فالمحجة بيضاء والحقيقة ساطعة.

وإنما اتفق هذا الاستهلال للشيخ عن فطنة وتوقد ذهن، تراه يتخذ من العقل والمنطق قاعدة انطلاق وأرضًا ثابتة يؤسس عليها معانيه، ويبني أفكاره . وقد يهدم قبل أن يبني كما ستراه لاحقًا. فيتخذ من التخلية قبل التحلية منهجًا لعرض أفكاره .

وتأمل بناء الكلام تجد المقول: «إن الفضيلة وسط بين رذيلتين » رأس المعنى وجوهره، وقد بناه على الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام، ثم أكده بـ (إنَّ) فصار قوله : «إن الفضيلة وسط بين رذيلتين » قاعدة بناء .

وقوله: (وسواء اطّرد هذا القول أم لم يّطرد) الواو فيه للاستئناف الذي هو عطف معنى على معنى. لأن الواو داخلة على جملة خبرية راجعة إلى الكلام قبلها. فاسم الإشارة في قوله: «هذا» راجع إلى قوله: « إن الفضيلة وسط بين رذيلتين » فقد بين في الجملة الأولى موقع الفضيلة وأنها وسط بين رذيلتين كالشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والكرم وسط بين البخل والتبذير ...وهكذا.

ولما كان لكل قاعدة شواذ استأنف مستدركًا بقوله: (وسواء اطرد هذا القول أم لم يطرد ...) والجملة مبنية على الاسمية اتكأ فيها المبتدأ على طباق السلب[2] بين (اطرد . لم يطرد).

وقوله: (فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط) خبر المبتدأ، والفاء

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) طباق السلب: هو أن يكون أحد طرفي الطباق مثبتًا والآخر منفيًا ، أو أحدهما أمر والآخر نهي .

– علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع . د.بسيوني فيّود . ١٤٤ . مؤسسة المختار . ط٢ . ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م .

الواقعة في الخبر في قوله: «فإن» هي الفاء الواقعة في الذي يشبه الشرط كقولنا: « الذي يأتيني فله درهم » .

وهذا تنوير لمعالم الصراط المستقيم وضياع حقيقته بين الإفراط والتفريط، وهي معاطب الانحراف عن جادّة الحق.

وقوله: (والناس يعانون ...) خبر ثان، وهي قائمة مقام التذييل[١] من حيث المعنى. وبهذا يروم الكلام رومًا آخر، فيدل على عاقبة الانحراف عن الصراط المستقيم، وهي آلام الناس ومعاناتهم. وهنا تضيع حقيقة الدين إذ الدين يُسر.

وراجع الكلام وتأمل التركيب، وكيف أكد الخبرُ الثاني الأولَ وخصصه؟ وكيف أتى بهما جملتين اسميتين خبرهما مضارع (تضيع) و(يعانون) لاستحضار الصورة وتجددها واستمرارها. وكأنك ترى بعينيك تمزق حقيقة الدين وغيابها في الانحراف بين الإفراط والتفريط. ومن ثم شقاء المجتمع عندئذ إن تنكّبوا هذا المنهج فسقطوا في الغلو أو في الإهمال .

وبين (الغلو الشديد) و (الإهمال البارد)، كذلك بين (الإفراط– التفريط) طباق إيجاب[٢] يُبين تساوي طرفي المقابلة في الانحراف عن منهج الدين الحنيف وتساوي العاقبة فيهما في شقاء المجتمع وتعاسته . وهكذا " ترى

---

(١) التذييل : هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتوكيد. وهو ضربان: ضرب لم يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بالمراد، وضرب أخرج مخرج المثل لاستقلاله بالمراد. وهو ينقسم إلى قسمة أخرى:

أ) أن تكون الجملة الثانية مؤكدة لمنطوق الأولى. ب) أن تكون الجملة الثانية مؤكدة لمفهوم الأولى .

– المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم تأليف سعد الدين التفتازاني، ت.د/ عبدالحميد هنداوي –٤٩٧ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

(٢) طباق الإيجاب: هو أن يكون المعنيان المتضادان مثبتين معًا، أو منفيين معًا . علم البديع – د/ بسيونى فيود –١٤٤.

الأضداد تتشارب وترى الجمل تمتد ثم تتشابك في هذا الامتداد وتصير أجزاءً في جملة واحدة "أم" يأخذ كل جزء فيها بحجزة الآخر"[١].

وهكذا ترى أن الغزالي اعتمد اعتمادًا يكاد يكون كاملًا على هذا الفن «التضاد» والذي يعتبر أصلًا من فنون الإقناع والحجاج، فهو ينساب في ثنايا المعاني وفي بنيتها بصورة واضحة.

وهكذا تبدت لنا بلاغة الطباق، فأبرزت الإفراط والتفريط وقد طُمست بينهما معالم الحقيقة، كذلك الغلو الشديد والإهمال البارد. والناس تصطلي بنار الغلو، وتتجمد حيوية الدين بالإهمال البارد « وأسلوب المقابلة من الأساليب المحببة إلى النفوس حيث يقود إليها الطبع فترد في الكلام سمحة مُنسابة ، ولعل السر في حسنها هي أنها تعين على تجلية الحقائق وإبراز معادنها»[٢].

وهكذا تواطئت هذه الجمل وجرتْ على نظام إيقاعي ونغمي متقارب. فيه عذوبة الموسيقى التي ترن في الأذن، وتطرب وتهش لها النفوس .

ولا يفوتك بعد الطباق بين (الغلو الشديد) و (الإهمال البارد) هذا الحس بطبائع النفوس في وصف (الغلو) بـ (الشديد) ، ووصف (الإهمال) بـ (البارد) فالغلو عَظُم قدره أو صَغُر شديد الوطأة تنفر منه النفس ولا تتقبله . ولا يصدر إلا عن غلظة وجفاء، بينما الإهمال هو طبع النفوس المنحلة وهي في الأغلب ذات طبيعة باردة تجمدت في عروقها دماء الغيرة لا تنفعل لدين يُعتدى عليه، ولا تكترث لعرض يُنتهك. استباحوا المحرمات فسُلبوا فورة الدم الحّر .

وهذا ترى الكلام قائم على هذا النسق بدأه بإيماض يُلمح، وإيجاز عن تعريف الفضيلة، ثم الأسباب التي تُفضي إلى الانحراف عن حقيقة الدين وعاقبة هذا الانحراف في نكد العيش وشقائه. إذ الراحة والسعادة في اتباع

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر- ٢٩٣.

(٢) قراءة في الأدب القديم - د. محمد محمد أبو موسى- ٢٨٦ - دار الفكر العربي ط١- ١٩٧٨م .

صراط الله المستقيم، وغصة العيش في عصيانه وترك صراطه القويم .

وهذا كلام موجز ولغة بالغة الوضوح والتكثيف. فرّع عليها صلب المقالة، فأتى تفصيلًا من بعد إجمال .

وكانت هذه المقدمة منوالًا نسج عليه كل معانيه وتسلسل منها حبل أفكاره ببراعة ويقظة ولطف حيلة.

" انحراف اليهود والنصارى عن الصراط المستقيم "

بداية من قول الشيخ: (وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة...) [١] إلى قوله: (فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية)[٢].

وفيها ترى الشيخ يستقصي الفكرة ويجليها ويُسبر أغوارها ، فيبادر بالتخلية قبل التجلية ثم ينتهي بالتحلية مبينًا مظاهر الإفراط والتفريط بين اليهودية والنصرانية ، ثم يردف بالوجه الآخر لوسطية الإسلام وهو في ذلك ينظم معانيه في سلك بديع من حسن التقسيم[٣]، فيفرق ثم يجمع رباط المعاني في تجلية تميّز الإسلام . ففي بيان زيع اليهود والنصارى في نظرتهم إلى الدنيا تراه يقابل[٤] بين اليهود في حبهم للدنيا وعبادة المال، وبين النصارى في رهبانيتهم وزهدهم وتجردهم من زينة الحياة الدنيا بقوله: (وعندما ظهر

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام . ٩٤ .

(٢) المرجع السابق . ٩٥ .

(٣) حسن التقسيم : هو استيفاء المتكلم أقسام الشيء بحيث يذكر جميع أنواعه ولا يغادر شيئا منها .

ـ الصناعتين في الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت ٣٩٥هـ ، ت. على محمد البجاوى . محمد أبو الفضل إبراهيم . ٢٣٠ . دار الفكر العربي . ط٢ . بدون .

(٤) المقابلة : هى أن يؤتى بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقة ثم يؤتى بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب . الإيضاح للخطيب القزويني ١٦/٦، وحاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص ٢٩٧/٤ –دار السرور – بيروت– لبنان .

الإسلام...) ثم يهدم كلا المسلكين بوسطية الإسلام بقوله : (وجاء الإسلام فرفض المسلكين ...) تأمل مقاطع هذا الكلام وفواصله ، وتأمل التركيب وكيف يبدأ بجملة قصيرة يجعلها قاعدة بناء يفرع عليها، فتتوافر فيه المعاني الجزئية وتتكاثر وهي في ذلك متقابلة.

انظر كيف جعل جملة (وعندما ظهر الإسلام) جذرًا فرّع منها طرفي المقابلة بين إفراط اليهود في حب المال وبين تفريط النصارى في زهدهم واحتقارهم المال .

ثم أردف بقوله : (وجاء الإسلام ...) ففرع منها أيضا جملتين : (رفض المسلكين) و (عدّ المال وسيلة لما بعده) وهكذا تجد كل فكرة بُنيت بناءً متشابكًا صارت به معنًى مركبًا، وكأنها كتلة واحدة تكونت من تلك الأفكار الجزئية التي تجمعت وتركبت.

والكلام بُني على المجاز في (رفض) و (عَدَّ) حيث شبه الإسلام بإنسان حُرّ من شأنه الرفض والعّد ثم حذفه بعد أن ذكر لازمه من طريق الاستعارة المكنية[1] وهي تؤكد أن الإسلام يقتضي منهجًا آخر ومسلكًا أرشد فكان وسطا بين مادية اليهود وإيغالهم في الأرضية والدنيوية، وبين رهبانية مستغرقة في ملكوت الله مُنبتَّة عن واقع الحياة ومتجردة عن مادياتها .

ولغرابة تصور النصارى للدنيا أكد الشيخ تلك النظرة لديهم بما ورد في ثنايا كتبهم بقوله : (حتى قيل في كتبهم: لأن يلج الجمل في سمّ الخياط أقرب

---

(١) الاستعارة المكنية : هي التشبيه المضمر في النفس المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه وهو الاستعارة التخيلية، وسميت مكنية لأن التشبيه المذكور لم يُصرح به ، بل دل عليه بذكر خواص المشبه به المفيدة بنسبتها للمشبه أنا ألحقناه بالمشبه به وجعلناه في مرتبته .

– شروح التلخيص ١٥٠/٤ ، ١٥٢ ، دار السرور– بيروت– لبنان ، التصوير البياني– ٢٥٤ .

من أن يدخل الغني ملكوت السموات) [١].

ولعلك ترى كيف أوثق عُرى الاستشهاد بُعرى كلامه فجاء أسلوبه رقراقًا في تحدّرٍ وانسياب، فلا تجد نتوءًا أو نشازًا يصدم به سمعك أو بصرك ، بل أتى متماهيًا ومتآزرًا مع كلامه وكأنه خرج من مشكاة واحدة مما يعكس قدرة الشيخ في انتخاب هذه الشواهد وقدرته على الدمج والتطعيم .

ويستدل الإمام لنظرة الإسلام الوسطية إلى المال بقول النبي . ﷺ . : «إن هذا المال خضر حلو ! ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وإن مَن يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة»[٢] .

وهو استدلال زاد المعنى نورًا وصلابة وتماسكًا وحجة ، إذ استطاع أن يقنع القارئ ويجلب تركيزه بما لا يدع للشك طريقًا في ذهنه وهو منهج في الخطاب فذّ مبهر مستميل تشع أنواره في نفس القارئ بروحانية إسلامية تنفتح لها القلوب وتنشرح لها الصدور وتنقاد لها العقول .

كذلك لبيان وسطية الإسلام في التشريع قابل الغزالي بين اليهودية التى أسرفت في التحريم حتى كثرت فيها المحرمات، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة والعفو والمسالمة بقوله:

(وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين في تعاليم اليهود ، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب ، وكأن مرضاة الله لا تتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة، فجاء عيسى . عليه السلام ـ يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله) [٣].

ثم يعقب الشيخ – كعادته – على الطرفين بوسطية الإسلام وسماحته

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام– ٩٤ .

(٢) المرجع السابق – ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ٩٤ .

بقوله : (وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس! ويسَّر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه ! وأقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذي المجتمع بالإصرار عليه) [١].

لله درك يا إمام ! كلمات جامعة بلورت فلسفة الإسلام في الثواب والعقاب، صيغت بأسلوب سهل رقيق بعيد عن التكلف أو التعقيد. يَسْري في نفس المتلقي سلسًا رقراقًا .

تأمل كيف عقد ثلاث جمل متشابهة البناء والتركيب (فرفض العبادة – يسّر التوبة – أقرّ العقاب) في ذيل الجملة الأم (وجاء الإسلام) وهي– كما ترى– تتدرج. والترتيب هنا يبدأ بالأولوية: تنقية العبادة من دَرَن القلوب، ثم إقالة عثرة المذنب الحي، ثم إظهار عصا الإسلام الغليظة لمن جاهر بالمعصية وحارب الله ورسوله .

كل جملة مكونة من فعل وفاعل ومتعلق الفعل. وهذه الجمل المكونة لهذا النص تدور حول بيان سماحة الإسلام والتحذير من فساد القلب وأمراضه.

فحال المؤمن يدور بين الخوف والرجاء، يخاف الإعراض والصدود، ويرجو من ربه القبول. فالله غني عن عبادةِ عبدٍ استطال بها على خلقه، فيظن صاحبها أنه قد أخذ بحبل النجاة وإذ به يصغر من حيث يتوهم أنه كبر، ويهلك من حيث يظن أنه قد نجا .

ويكرر الشيخ نفس المعنى للتأكيد عليه، ولكنه يرتقي في الصياغة فيبني معانيه على المجاز بقوله: (أي إنه رفض الطاعة المستكبرة، ورحم المعصية النادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق!) [٢].

تأمل كيف كرر المعنى مؤكدًا ، وأتى بـ « إنّ » المؤكدة في صدر

---

(١) المرجع السابق ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ٩٤ .

الكلام ؟ وكيف قابل بين (رفض الطاعة المستكبرة) و (رحم المعصية النادمة)؟ فأسند (المستكبرة – النادمة) إلى المفعول (الطاعة – المعصية) والمقصود صاحبهما من طريق المجاز العقلي[1] وكأن التكبر وهو داء طفى حتى نضح وسرى من صاحبه إلى هيئات أفعاله وجوارحه ، فصارت التكبر متجسدًا فيها تراه العين وتسمعه الأذن .

وكذا (المعصية النادمة) تملّك صاحبها الندم حتى انعكس على هيئته وجوارحه ، فلا تراه إلا منكسر المِشية خافت الصوت .

ومثلهما (الإصلاح المتواضع الرقيق) إشارة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فأكسب معانيه حياةً . جعلها تخترق قرار النفوس حتى تبدّت لها نفس القارئ بالقناعة والاقتناع، وكأنها الماء العذب الزلال. ثم قوّى شوكة المعنى فجمع بين المجاز واستشهاده بقول سيدنا علي – ﷺ – حيث استأنف مستدلًا ومؤكدًا بقوله: (الفقيه كل الفقيه من لم يُقنّط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكره!) [2] مقابلة أتى بها للاستدلال على التوازن في دعوة الناس بين الترغيب والترهيب .

ولما كان في نص استدلال الشيخ على رقة النصرانية وليونتها في تعاملها في جريمة الزنا ما يوهم تهاون نبي الله عيسى – عليه السلام– استأنف في استدراك وبيان لهذا الفهم المغلوط بما رواه الإمام مالك عن عيسى – عليه السلام – بقوله : (لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على

---

(١) المجاز العقلي: هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس غير ما هو له بتأوّل ، وللفعل ملابسات شتي: يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، السبب .
ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ٥٣/١ ، تأليف عبد المتعال الصعيدي . مكتبة الآداب – ٢٠٠٥م.

(٢) مائة سؤال عن الإسلام – ٩٤ .

العافية) [1].

ولا يفوتك هذا التماسك في الانسجام في بِنْية النص- كما ترى - فالتحم ما خطه الشيخ ببراعة بما استدل به واستشهد. وبناء الكلام في كل على المقابلة. ولولا الأقواس لظننتَ الباني واحدًا، فاتحد الرصف والسبك وكانت دقة الصياغة وبراعة التعبير هي السمة لأسلوب الشيخ.

(١) المرجع السابق- ٩٥ .

المبحث الثاني

وينقسم إلى محورين :

المحور الأول:

طرائق تشكيل النص في تميّز الإسلام بوسطيته وشمولها لشؤون الدين والدنيا.

المحور الثاني :

طرائق تشكيل النص في إظهار الحزن والأسى على واقع المسلمين بين انتكاسهم عن التمسك بحبل هذا الدين، وارتكاسهم في ذيل الأمم .

المحور الأول : تميّز الإسلام بوسطيته وشمولها لشؤون الدين والدنيا " التجلية مع التحلية "

بداية من قول الشيخ: (والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالصراط المستقيم ...) [1] إلى قوله: (ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة) [2].

هذا عَوْد على بدء فيما يتعلق باصطفاء المسلمين بجعلهم أمة وسطًا إثر ذكر طرف من إفراط وتفريط اليهود والنصارى، فعاد بحبل المعنى إلى مقدمة المقال. فقوله: (والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا) [3].

الواو للاستئناف وكأنه يفتح زاوية أخرى من المعنى، ففيه استيعاب واستقصاء وشمول لمعالم هذه الخصّيصة المميزة لأمة المسلمين .

واضح لمعناه، وكيف احتفل به ؟ فبناه على الاسمية كفعله فيما سبق. حيث يطلب التوكيد لمعانيه ، فأتى بالمبتدأ، وأخبر عنه بخبر جعله جملة اسمية غاية في القِصَر « من مبتدأ وخبر » مفردين ، ثم مَطَّط المعنى فأتى بخبر بعد خبر، وجعله فعلًا مضارعًا تتجدد به دعوة الإسلام إلى منهج الوسطية في كل عصر وزمن (يأمر بالتزام الصراط المستقيم).

ويمكن حمل الجملة الفعلية على البدل (دين وسط) فبين الجملتين كمال الاتصال.

وقوله: (ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينا والمنحرفة يسارًا) معطوف على قوله: (يأمر الأمة ...) وتأكيد له باتباع منهج الإسلام القويم . وهكذا تجد الكلام جملة واحدة . قال : (الإسلام دين وسط) ثم وضحه، ثم زاد من

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام . ٩٥ .

(٢) المرجع السابق . ٩٧ .

(٣) المرجع السابق . ٩٥ .

لحمة سبكه فجعل المعطوف والمعطوف عليه ضدين. وأقام بناء جملة العطف على الطباق بين (المنحرفة يمينًا والمنحرفة شمالًا) فيتجلى لنفس القارئ أن الصراط المستقيم طريق واحد لا يتعدد أو يتشابه فوجب التماسه ، بينما تعددت مسالك الضلال ودروب الزيغ والتيه . فترى الأضداد تتشارب، والجمل تمتد ثم تتشابك ممسكة بحبل الجملة الأم .

ثم لم يكتف بقوله ، وإنما أضاف تحقيقا وتدقيقا للأوصاف العامة للصراط المستقيم الذى نزل به الكتاب وسنة النبي ﷺ، فاستأنس بقوله الصحابيّ عبدالله بن مسعود محمّلًا على ظهره نص الآية القرآنية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[1] وأتى بها في صلب المعنى المراد. فكان الشاهد نورًا من نور وبيانًا من بيان، وَوُضع حاق موضعه من بنية نص الشيخ .

وهكذا ترى قدرته على تحريك المعنى في أبعاد ومحاور واتجاهات متعددة، لكنها متماسكة كألوان الطيف .

وهذا يعكس امتلاء نفس الكاتب بأفكاره وقدرة بيانه على استيعاب هذه الخواطر والأفكار والإبانة عنها في حروفه وكلماته وعباراته .

وقوله : (والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع، وغالبًا ما يزيغ عن الحق وينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح ...) [2] بالعطف على (والإسلام دين وسط ...) وهو . كما تراه . استئناف بيان؛ ليدل على الانحراف عن الصراط المستقيم ومعاطب هذا الانحراف وأسبابه.

وفي هذا الجزء يروم الكلام رومًا آخر، تراه يغوص، ويدقق، ويعلل أسباب ودواعي الغلو في الدين، ويعزوه إلى اثنين من الأسباب صاغهما خبرين للمبتدأ هما قوله: (قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عِوَج في الطبع)

---

(١) سورة الأنعام . ١٥٣ .

(٢) مائة سؤال عن الإسلام . ٩٥.

وجعلهما مقدمات أردفها بنتائج لهما بقوله: (وغالبًا ما يزيغ عن الحق، وينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح) .

راجع الكلام، وكيف بنى معناه على التشخيص والتجريد، فأراك الغلو شخصًا مصابًا بفهم مغلوط أو طبع معوج تنكبت به إحدى الصفتين عن الاهتداء بالحق حتى آل إلى الانسلاخ من دين الله .

وتأمل براعة الصياغة، وكيف أتى بحال من بعد حال، وبناهما على المضارع (وغالبًا ما يزيغ عن الحق) و (ينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح) من الضمير المستتر في الفعل (ينتج) العائد إلى الغلو.

وتأمل صنعة الكلام، وكيف صدّر جملة الحال بالواو وقدم الظرف (غالبا) على الفعل (يزيغ)؛ ليؤكد استمرارية وتجدد هذا الزيغ عبر الزمن. وزاد الفعل توكيدًا بإدخال (ما) الزائدة على المضارع فتراكم التوكيد ، فأبان أن كلا الصنفين لا ينفك حالهما ومآلهما عن الزيغ والشطط عن الصراط المستقيم حتى يبلغ به الأمر إلى الانسلاخ من شرع الله .

وأتى بالفعلين بصيغة المضارع فجعلك تستحضر وتشاهد عيانًا صاحب الفهم المغلوط يحيد به فكره عن فهم حقيقة الدين وسماحته . وترى صاحب الطبع المعوج يعكر صفو شرعة الله بطباعه ويجعلها دينًا يُتبع ، يحاسب من يخالفه أو يعارضه .

ولعلك تلحظ تعادل الكلام وتوازنه في الأداء الصوّتي (خطأ في الفكر – عِوَج في الطبع) و (يزيغ عن الحق – ينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح) وكيف عاد إلى أهم ما في القضية وهو الغلو في الدين؟ وهو بدواعيه الاثنتين أساس الانحراف عن جادة الدين الحنيف .

والعِوَج: هو الميل عن القصد والاستقامة، لكنه « بفتح العين في الأجسام، وبكسر العين في المعاني، وأصله: أن يجوز فيه الفتح والكسر ، ولكن الاستعمال خصص الحقيقة بأحد الوجهين والمجاز بالوجه الآخر وذلك

من محاسن الاستعمال»[١].

وإنما عدل الشيخ إلى المصدر بالمبالغة في الاعوجاج، أي: شديدة العِوَج .

ومنه قوله ابن خفاجة:

وقَبضْتُ ذَيْلِي رغبةً عن مَعْشَرٍ ∴ عوج الطِّباعِ كأنهم أَضْلاعُ[٢]

وقد تكررت هذه العبارة (عِوَج) عند الشيخ في معرض نصحه بالصبر على دعوة هذه الفئة من الخلق بقوله: «إن تكاليف الدعوة ثقيلة، والتعامل مع عوج الطباع فريضة»[٣].

ولاحظ كيف تدرج فابتدأ بـ (خطأ في الفكر) ثم (عِوَج في الطبع) وكيف أشار بهذا الترتيب إلى أن صاحب الفهم المغلوط أهون من صاحب الطبع المعوج، فصاحب الفكر يُناقش ويُحاور ويُنتقد؛ ولابد لعقله يومًا من وثبة وأوبة إلى الحق والرشاد سواء أطال أمد تلك الأوبة أم قَصُر، وسواء أكان مثير وثبة عقله تلك هو نور الهداية أو المناظرة بالحجة والبرهان. سيؤوب يومًا من غيّه مهتديًا إلى الحق والصراط المستقيم .

لكنَّ (عِوَج الطباع) أشد أمرًا، فكما قال المتنبي: وتأبى الطباع على الناقل[٤].

فعِوَج الطباع آفة نفسية جُبلتْ عليه النفس وخالطت منها اللحم والدم،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور . ٨ / ١٣٩ . الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤م .

(٢) البيت في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تأليف: أبو الحسن على بن بسام الشنتريني (ت . ٥٤٢هـ) . تحقيق: إحسان عباس . ٦/ ٥٦٤ . الدار العربية للكتاب . ليبيا . ط١ . ١٩٧٩ .

(٣) جهاد الدعوة . للشيخ محمد الغزالي . ٤٥ . دار النهضة مصر . القاهرة . ٢٠٠٥م .

(٤) البيت في دلائل الإعجاز . الإمام عبد القاهر الجرجاني . تحقيق أبو فهر / محمود محمد شاكر . ٤٢٣ . م المدني . ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م .

فكيف السبيل إلى نقاء وتصفية عكارته؟

وعِوَج الطباع شذوذ عن الفطرة قد يكون بجهالة وحمق، أو كبر وصلف، أو عناد وغلظة، وواحدة منها« هي علامة انحراف وذلك هو عوج الطبع الذى لا يستقيم صاحبه على الاعتدال»[1].

وكما هو معلوم صاحب الحق يكفيه دليل واحد، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل .

ثم لا يفوتك تقييد هذين الصنفين بالحال المصاحبة لهما دومًا (وغالبًا ما يزيغ عن الحق) ثم عطف عليها حالًا أخرى. وبناء الحالين على المضارع، فجعلك تستحضر صورة المغالي في دين الله وفكره وطبعه المشوّه ينحرف به شيئا فشيئا حتى يبتعد به، وينسلخ من دين الله القويم .

وأمرًا آخر خالط صنعة البيان في صياغة الحالين، بنائهما على المجاز في قوله: (وغالبًا ما يزيغ عن الحق) و (ينتهي بالانسلاخ عن الدين) فالزيغ: هو الميل والانحراف عن المقصود.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[2]، ويقال: زاغت الشمس. والزيغ أخص من الميل؛ لأنه ميل عن الصواب والمقصود .

ولما كان الزيغ موطنه القلوب بمعنى العقول قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[3] والعقول: هو محل الإدراك، فقد تعطلت لديهم ملكة الفكر والتدبير، وطغت غرائزهم، فاستبدت بهم، وسقطوا صريعي الهوى والشهوة. فأنّى لهم أن يسمعوا ويعوا أو أن يُبَصَّروا فيبصروا ؟! قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي

(١) ما يُقال عن الإسلام . عباس محمود العقاد . ٣٠٣ . مكتبة دار العروبة . مطبعة المدني . ط١ . بدون .

(٢) سورة النجم : ١٧ .

(٣) سورة آل عمران : ٨ .

طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1].

والعرب يستعيرون الانسلاخ . الذي هو في حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده . للانفصال المعنوي: وهو ترك التلبس بالشيء أو عدم العمل به من طريق التبعية[2] في المصدر. والصورة فيها قبس من آي الذكر الحكيم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾[3].

وانظر إلى اقتدار الشيخ وبراعته حين صور فأبان بالاستعارة في المصدرين (الزيغ) و(الانسلاخ) باطن الغالي في دين الله وظاهره. وكأنه كلما زاغ قلبه عن الحق وانغمس في مجاهل الضلالة ماتت منه قطعة حتى يكتمل موته، فينسلخ حينها من الدين ويمرق منه. فكان ميتا بتنكُّبه للصراط المستقيم، ومفارقته للدين الصحيح كحال الميت في الخمود والهمود ، فلا انتفاع بعقل أو سمع أو بصر؛ فتأتّى معه انسلاخ الدين ومروقه منه.

وهو تعبير فريد يشعّ إشراقًا ونورًا ويضفي على المعنى فيضًا من الحركة والحيوية.

وبين (العِوَج ـ الزيغ) مراعاةُ نظير[4] أشعر بأن « الزيغ » إنما هو

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٦ .

(٢) الاستعارة التبعية: هي الاستعارة التي تجري في الأفعال والمشتقات؛ لأن التشبيه في هذه الاستعارات لا يقع في الأفعال وإنما يقع في مصادرها .
. التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ، د. محمد محمد أبو موسى . ٢٢٩ . م . وهبة ، ط٦ ، ٢٠٠٦م .

(٣) سورة الأعراف: ١٧٥ .

(٤) مراعاة النظير: في اللغة من الملاحظة والمراقبة ، والنظير المِثْل . وفي اصطلاح البديعيين : هو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، وهذا يعنى حسن الملاءمة في الجمع بين الألفاظ والمعاني بما يحقق الترابط والانسجام .
ـ الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزوينى . ٣٥٥ . دار الكتب العلمية . ط١ ، ١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م .

انعكاس «للعوج» قد جُبلت فطرتهم على هذا الميل، وتأصل ونما واطرد حتى استغرق كيانهم، واستوعبها سلوكًا وتفكيرًا. فإذا العوج الكامن والموغل في باطنهم ظاهرًا في مناحي حياتهم .

وهنا يأتى الغلو ثمرةً ونتيجةً لاعوجاج هذا الصنف الشاذ عن استقامة الفطـــــرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾[1].

ولما كان هذا الرأي اجتهاد في التحليل والتعليل قوَّى حجته بقول الحق سـبحانه :﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[2] حتى يتقرر ويتمكن هذا الرأي في نفس القارئ فضل تمكّن.

والاستشهاد ظاهرة من الظواهر الأسلوبية في كتابات الغزالي حيث يأتي بمعنى ثم يؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول .

وقوله « هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينًا بالابتداع والحماس الكاذب، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهي بالجحود والتمرد ...» [3] فصل هذا الكلام عن سابقه لكمال الاتصال، فهو تبيان وتدقيق أكمل في الوصف، وهو ضرب من بلاغة الكلام وقد أكثر الغزالي منه.

وتأمل تسلسل الأفكار وترابطها ، وكيف أنها تتوالد وتتكاثر ..

أولاً: آفة الغلو وأسبابه (والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ ...) ثم أردف بقوله: (هناك من يبالغ في التعبد ....) لبيان صور الغلو، فبناه كعادته على المقابلة، فيضع لك الطرفين نُصب عينيك حتى يؤكد لك هذه المفارقة الشاذة.

---

(١) سورة آل عمران – ٧ .

(٢) سورة المائدة – ٧٧ .

(٣) مائة سؤال عن الإسلام . ٩٥ .

تأمل كيف أبان بالمقابلة عن تناقص قطبي الغلو وتجاوزهما حد الوسطية؟ فأمة الإسلام ليست يمينًا ولا يسارًا .

ولاحظ هذا التشابه في البناء ، وكيف بنى كل طرف من المقابلة على فعل مضارع وقع صلة وحال مفردة (يمينًا ويسارًا) ثم الجار والمجرور الذى وقع أيضا حالاً ، وصدَّر كل جملة بالظرف وكأنه يومي إلى أن كل طرف تساوى مع الآخر في عدم الاتباع.

ومثل هذا يورث الكلام نغمًا متقاربًا ويؤلف بين أجزائه بهذا النغم المتقارب.

وقوله : (يمينا ... ويسارًا) كناية[1] عن الانحراف عن المنهج الذي سماه الله . تعالى «الصراط المستقيم» .

فاليمين: كناية عن التنطع والتشدد والإفراط، واليسار: كناية عن التفريط والتسيُّب والانحلال، وكلتاهما كناية عن صفة.

وتأمل جملتي الحال (بالابتداع والحماس الكاذب)، والابتداع : عكس الاتباع والأصل أنه يكون في أمور الدنيا. إذ القاعدة الأصولية تقرر : الأصل في الدين الاتباع وفي الدنيا الابتداع . ولكن هذا الفريق قلب القاعدة، فألبس الدين ما ليس منه وجمد وتصلب في أمور الدنيا .

وعبارة (الحماس الكاذب) بُنيت على التجوز في الإسناد ، والأصل : « حماس مكذوب » وهو يشير بهذا إلى الفهم المغلوط لحقائق الدين ومقاصده لدى هؤلاء. إذ وقر في نفوسهم أن ما يفعلونه فيه رضا الله ورسوله. فتجد الدافع وراء تشددهم هو الحماس والتفاني والغيرة على دين الله.

وكذلك قوله عن الجانب المقابل: (بالإهمال المنتهي بالجحود والتمرد)

---

(١) الكناية : هي لفظ أطلق وأريد لازم معناه الحقيقى مع قرنية لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي .

. التصوير البياني . ٣٧٤ .

. والنسق هنا غير الأولى. هنا بني المعني على الترقي وترتيب النتيجة على المقدمة، فالغلو هنا ينشأ بالإهمال والانحلال والتخلي عن تعاليم الدين الحنيف حتى استبد بهم فصاروا متحللين من كل شيء يُقال له دين . وأمسى هذا دأبًا لهم وسجيَّةً ، حاربوا تعاليم الإسلام وحدوده وصار الدين لهم محط سخرية واستهزاء، وفي هذا محادّة لله ورسوله .

ويستدعي الشيخ نصًا آخر لأحد أعلام الأزهر وهو الشيخ محمد عبد الله دراز : (كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير ...) [١] فتزداد حجته وضوحًا ، وكأنه يومئ بهذا إلى منهج الأزهر في وسطيته، فليس الرأى خاصًا به .

وقوله: « إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا جميعاً، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضني، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله . ﷺ : « إن لكل شيءٍ شره حماسًا ونشاطًا . ولكل شره فترة . برودًا وعجزًا . فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه »[٢].

كلام بُني على القطع والاستئناف ، إذ تراه استأنف استئنافًا بيانيًّا بما فيه جماع مقومات الدين الحق الذي يجمع معنى القسط والوسطية في شئون الدين والدنيا جميعًا . وهذا مما عدَّه البلاغيون الجمع بعد التقسيم .

تأمل تجده يكرر المعنى ويؤكده في أسلوب متشابك متماسك « فالجمع بعد التقسيم عودٌ إلى الأقسام وضبط لها وربط جديد يضاف، وكأننا نتناول الشيء ثلاث مرات مرة نذكره ومرة نقسمه ومرة نجمع أقسامه»[٣].

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام . ٩٥.

(٢) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٦.

(٣) مدخل إلى كتابي عبد القاهر. ٣١٣.

فقد قال الشيخ : « والإسلام دين وسط ... » ثم بيَّن تردد الانحراف بين طرفي الإفراط والتفريط بالتمثيل التجريدي بقوله : « هناك من يبالغ في التعّبد فينحرف يمينًا ... وهناك من ينحرف يسارًا ... » فإذا به يجمع زمام ذلك بقوله : « إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا » وكأن الاستئناف وقع جوابًا لسؤال: أين موقع الإسلام من هذين الاتجاهين يمنة ويسارًا ؟

وهكذا تجده في تقرير حقائق الدين ينتظم أسلوبًا يتهادى ما بين التحليل تارة، والتعليل تارة أخرى، والمعنى هو، وإنما تراه يمده ويمطّطه ويضيف إليه حتى تهش به نفس القارئ فتستوعبه اقتناعًا ثم تنفك عنه .

ويمضى الشيخ في تمثل الجملة الاسمية في إثبات الحقائق ويؤكدها بـ « إنَّ ».

وقد يأتي بالخبر جملة فعلية فعلها مضارع ليفيد تجدد واستمرار شرع الله وصلاحيته لكل زمان ومكان أشرقت عليه الشمس أو غربت .

ثم انظر كيف أكد هذه الشمولية بالحال « جميعًا » وهو رأس المعنى في الجملة وقطبها، فالإسلام دين ودنيا، وقد بلغ في ذلك الميدان حدّ الاستيعاب، فليس ثمة تصرف إنساني يخص المرء من المهد إلى اللحد إلا وألقى عليه الإسلام ظلاله ، وامتد في كيانه وجوانبه حتى تتسع الدائرة التي يعمل فيها التشريع ليشمل الحياة كلها، فلا يدع في السلوك العام أو الخاص فجوة يقوم غيره بسدادها .

ثم إنه قد رامَ هذا المعنى بدلالة طباق الإيجاب بين « الدين . الدنيا » ثم أكده بالحال ثانية . كما سلف .

ثم يمضى الشيخ الغزالي يُفرّع على هذا الأصل الجامع « إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا ... » مظاهر الوسطية ومعالمها. وهو في كل يقيم بناءه على المقابلة، ويعقد أواصر أسلوبه في ثوب من حسن التقسيم بديع . كما سيأتي .

فقوله : « ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضني ، ويؤثر الاعتدال المستمر » تفريع عما سبق . وهو بذا يُبين عن منهج الإسلام القويم في العبادة بالبعد عن الإجهاد الذي يفضي بالمرء إلى ترك العبادة كلية، وذلك هو الضلال المبين . فكما قيل : قليلٌ متصل خير من كثير منقطع، وكقول النبي . ﷺ .: « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ »

ويُضفى على قوله أريجًا من قول الرسول ، فيزيد في قوله وكادةً ووضاءةً : « إن لكل شيء شرة ...» وهو تأكيد يحمل في طيّه تعليلاً حين يروعك بلاغة النبوة وسبرها لأغوار النفس البشرية والتي جُلبت على الملل والسأم، وكأنَّ لسان حال الحديث الشريف للمتشددين والمغالين في دين الله: ما هكذا تُورد الإبل، إذ لكل نفس آفاق ووديان وأحوال وهيئات تتفاوت فيها قُواها بين القوة والضعف، والنشاط والفتور .

لذا على المرء أن يحمل نفسه على الحق رويدًا رويدًا لا جملة أو فجأة. فإن هو فعل لفظته جملة كما تعاطته جملة . وأن يراوض نفسه بين التأديب تارة، والإحسان أخرى ويكون أمره بَيْن بَيْن .

ويتم رؤية الإسلام الشاملة لدين المرء ودنياه ، فيقابل الجانب التعبدي السابق بالجانب الدنيوي بقوله : « وفي شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير ...» هكذا اكتملت الرؤية الشاملة لشرع الله في جمعها بين الدين والدنيا بالمقابلة .

ثم هو في داخل شأن الدنيا يقابل أيضا بين « يكره الإسلام التبذير والتقتير » ، « يحب الإنفاق المعقول » ليرسم بهذه المقابلة صورة إرشادية لمذهب الإسلام القائم على القصد والاعتدال في النفقات .

ثم راجع الكلام، وكيف أتى معناه ؟ لتجد أن قوله : « يكره التبذير والتقتير» «دالٌ بالطباق على القصد وكان يمكن أن يكون كافيًا؛ لأنه دال على الوسط دلالة لزوم ، لكنه نصَّ على الوسط فأتى بطرف المقابلة الآخر «ويحب الإنفاق المعقول»؛ لأنه الجوهر المطلوب وله مزيد عناية . والمقصود

توجيه سلوك المسلم في تدبير معاشه وقيامه بسداد خلته وخلة أهله ، وأن يكون حالة في نطاق القصد الذي لا إسراف فيه أو شطط ، وأيضا لا تقتير فيه أو شُحّ .

ويستدل لهذا السلوك الحياتي بقوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾[1] فيجمع بين العقل والنقل في الإقناع .

هذا وحين ترسل بصرك إلى النسيج المحكم من البناء والسبك تتجلى لك فطنة الشيخ، وحصافة منطقة في أمرين :

أولهما: حين آثر الاستدلال بهذه الآية دون غيرها من نصوص الكتاب أو السنة ، فالنصوص التي تدعو إلى الجود مستفيضة مطردة والتي تبغض الكزازة والبخل موصلة متّقدة ، لكنه آثر الآية دون غيرها؛ لأنها إحدى أوصاف عباد الرحمن، فيزداد علوقها في العقل والوجدان .

ويطوع الإنسان مذهبه في الحياة حتى يشرف بهذه الإضافة «عباد الرحمن » وتلين طباعة فيقّوم الدين عِوَجها ويصبغها بصبغته .

ثانيهما: محاكاة حذو البناء في نص الشيخ لحذو المعنى في الآية الكريمة حين بدأ فذكر الطرفين المتطرفين « التبذير – التقتير » بين الإفراط والتفريط ، فدلّ على أن صاحب الحكمة لا يسلك أحدهما، ثم يدل على الطريق الأقوم ويغري به «الإنفاق المعقول؛ لأنه طريق الرشد القويم .

وهكذا كانت حركة المعنى في الآية: نفي الإسراف ، ونفي التقتير ثم نصَّ نصًّا ظاهرًا على سواء السبيل « وكان بين ذلك قواما » وهو التوسط في الإنفاق .

وكأن الشيخ قصده قصدًا؛ ليزيد في إحكام النسج، وقوة السبك ما يزيد بهذا التآلف والتقارب في حذو البناء.

---

(١) سورة الفرقان . ٦٧.

وبعد أن جلّى الإمام حقيقة الدين وجوهر دعوته بأنه أتى رحمةً من الله للعالمين. ارتكزت على وسطية منهجه وسماحة شريعته، إذ به ينعطف عن مسار السباق ليحيد بدفة حديثه إلى محنة الدين وآفة الدعوة بفئة من العلماء ليسوا لهذا الدين بكفء ، أساؤوا الفهم عن الله ورسوله حتى صار الدين لدى أكثر الناس هو موجب لهذه الأفهام وتصورها .

يقول . رحمه الله . متأسفًا : « في مجال العلم الديني رأيت ناسًا متبحرين في المنقول والمعقول بهم فقه واسع ، ومحفوظات كثيرة ، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضاء، وقدمت إليه امرأة متهمة بالزنى ، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له ، وحكم برجمها ؛ لأنها متزوجة !!» (١)

راجع الكلام، وصنعة البيان تجد عجبًا لدى الشيخ ، بنى كلامه على القطع والاستئناف، ففتح جذرًا آخر في معناه وأقامه على المقابلة ، فقابل معنويًا بينه وبين ما سبق . بين دين له منهج مستقيم وأتباع ذوى أفهام معوجة، وكأن نفسه . رحمه الله . استجاشت لوثة أفهام هؤلاء وقدرتها على تعكير شرعة الدين وصفو سماحته . دعاة غلاظ النفوس جفاة القلوب يصدون عن سبيل الله وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا .

وحين ترسل ناظريك لترى كيف تهدَّى إلى هذه الإشكالية بقلمه ، ترى نفاذ بصر ، ومُكنة عقل ، وديانة وافرة .

انظر كيف أمسك لُبَّ القضية إمساك الطبيب الحاذق بمعرفة الداء والدواء ، فوضع يده على القصور والخلل في التكوين الثقافي والبناء المعرفي عند هذا الصنف من العلماء مبرزًا أداته المفضلة في الوصف والبيان بالمقابلة بين (متبحرين في المنقول والمعقول بهم فقه واسع) وبين (لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ) .

---

(١) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٦.

وراجع الكلام ، وكيف أسس معانيه ؟ فقدم متعلق الفعل (في مجال العلم الديني ...) ثم بني عليه قاعدة معناه (رأيت ناساً متبحرين ...) ليدل بهذا الفعل على معاصرته وتجربته الذاتية في مخالطة هذه الطائفة عن قرب، فليس الراوي كالشاهد « ولا ينبئك مثل خبير » تبيانًا وإخبارًا .

وتأمل دقة عبارته واستيعابها معالم هذه الطائفة على وجازتها ، وإقامتها على المقابلة الظاهرة بين المنقول والمعقول ، بين (بهم فقه واسع) و (محفوظات كثيرة) إذ الفقه بمعنى الفهم يقابل الحفظ والتذكر، ثم يأخذ بزمام ذلك كله في مقابلة (لكنَّ قلوبهم يشينها جفاف بالغ) وكأنه بهذه المقابلة يضع بين عينيك ويؤكد لك هذه المفارقة الغريبة الشاذة عند هذا الصنف من علماء الدين ، لم يشينهم فقر علم ، وإنما فقر فكر ومنهج كان هو عيبهم وعوارهم . عقول أترعت علمًا وقلوب صُمَّت قساوة وغلظة . ودين الله ضحية هذا الخلل ، وإذا كان العلماء كالملح فمن يُصلح الملح إذا الملح فسد ؟ !!

وقوله : (تولى أحدهم القضاء ... لأنها متزوجة) [1] استئناف عقَّب به المعاني المتقدمة المتضمنة وصفهم ، فكان ذكر هذه القصة كالنتيجة لما تقدمها، فمن أساء الفهم أساء التطبيق وحاد عن وجهته ، والمرء قلب وعقل فإذا غُذّي أحدهما وأهمل الآخر استبد به الذي غُذّي وانفرد بزمامه، فحاد به عن الصراط المستقيم .

وهكذا كان حال القاضي مناط الاستشهاد كنموذج لهذا الصنف ، حين قاده عنت التطبيق لشرع الله ، فبدا جزارًا في نظرته إلى المتهمة بالزني، وكأنها فريسة أخذ يحتال عليها ويمكر بها حتى انتزع منها اعترافًا أوجب عليها إقامة الحد بالرجم إذ كانت محصنة .

(١) المرجع السابق . ٩٦.

وقوله: (قلت: هذا منهج يهودي، فإن رسول الله كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن قراره ... ليس هذا أسلوب الإسلام) [١] استئناف في صدر جواب لسؤال مقدر لبيان الرشد في هذا الأمر بعد ادعاء فساد السابق .

تأمل كيف هدم فعل القاضي بجملة اسمية قصيرة جعلها مقول القول، فأبرزها بذلك حقيقة ناصعة جرت مجرى الحقائق ثبوتًا وتأكيدًا .

وانظر إلى الشيخ حين عدل عما هو مألوف في الحجاج والتنظير بذكر الدليل أولًا مشفوعًا بالنتيجة إلى ذكر النتيجة أولًا بقولة : (هذا منهج يهودي) ثم ثنى بالدليل فكان في فعله هذا ما فيه من المفاجأة والمباغتة في تعرية فعل القاضي من أستاره، وهدم ركيزة استوائه وعماده مما قد يُظن به أنه دين. فأتى بنيانه من قواعده، وكأنه أنقاض صرح هوى !!

ثم ثنى بالدليل وأردفه بتعليل انحراف هذا المنهج بجملة طالت وامتدت وانقسمت بالمقابلة والمفارقة بين فعل نبي الرحمة . ﷺ . وفعل هذا القاضي الفظّ بقوله: (فإن رسول الله كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن قراره ...) فتزداد الحقيقة جلاءً ويبدو فعل القاضي مبتورًا ، فلا أصل له من دين أو اتباع .

ثم يُحكم سياج المعنى بهذا التذييل (ليس هذا أسلوب الإسلام)، فيزداد المعنى وكادةً وتماسكًا.

وضع هذه الجملة (ليس هذا أسلوب الإسلام) بإزاء قوله : «هذا منهج يهودي » تجده ختم بما ابتدأ به، وكأنه يقلب ذات المعنى بالنفي تارة، والإثبات أخرى. والمعنى بينهما يموج ويمور حتى لا يذر لبنة يركن إليها أو ظلًا يأويه .

وقوله: (والعلة أن جانبًا آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلًا ...)[٢].

---

(١) المرجع السابق . ٩٦.

(٢) المرجع السابق . ٩٦.

الواو واو الاستئناف التي تعطف مضمون كلام على مضمون ما سبق، فكأنه جمع بين تشخيص الداء ببيان فساد وعطب هذا النموذج، وبين أسباب هذا الداء ودواعي علته.

وتأمل كيف أقام معناه على اليقين لا على التخرُّص أو التكهُّن؟ فعرض المعنى بأسلوب القصر ، إذا أتى بالمسند معرفًا ليفيد تقريره للمسند إليه وقصره عليه، ثم زاد التوكيد بجملة اسمية جعل فيها المبتدأ مفردًا وأخبر عنه بجملة اسمية مؤكدة بـ (إنَّ) طالت حتى استأثرت بتفصيل وبيان هذا الخلل في تربية هذا الصنف من العلماء، فلم يجمعوا بين تغذية عقولهم ونمائها بالعلم والتحصيل، وبين تغذية الروح وإذكائها، فكانت النتيجة علم جاف عقيم. بهم قدرة عقل على الاستدلال لا قدرة قلب على تذوق حلاوة الإيمان .

وقوله: (ولو ألف علم القلوب) وذاق الجانب العاطفي من الإسلام لستر وغفر يستره الله ويغفرله !!» [1].

بالعطف على قوله: (والعلة أن جانبا ...) لتأكيد المعنى وأسلوب الشرط هنا مبناه التمني .

وتأمل كيف صاغه؟ وكيف أتى بالشرط مركبًا من جملتين معطوفة إحداهما على الأخرى بقوله: (ألف علم القلوب) و (ذاق الجانب العاطفي من الإسلام) ؟ ليشير إلى أن هناك علمًا آخر ضميمة علوم الشريعة؛ ألا وهو علم تزكية القلوب.

مَن جمع بينهما ترى في منهجه ضبطاً وتوازناً في تطبيق شرع الله ، فتصاحب الروح العقل فليس الدين علمًا تجريديًا أو نظريًا ، وإنما علم وعمل ومعاملة ، فلا نُريد صوفية شاطحة ولا سلفية ناطحة .

تأمل خطورة أن يُسند القضاء أو الفتوى إلى أناس قلوبهم معتلة ، وتأمل بلاغة الشيخ حين يُجلِّي من بعد غموض، ويفصح من بعد إبهام. فيعدل عن

(١) المرجع السابق-٩٦.

صراحة الإخبار عن ماهية هذا الجانب المفقود من الثقافة الإسلامية عند هذا الصنف من الدعاة إلى الإخبار به في إطار الشرط وإرادة التمني بهذا الإسلوب «لو ألف علم القلوب ... ».

وقوله : (يستره الله ويغفر له !!) جواب لشرط محذوف دل عليه السياق، والتقدير : (فإن فعل كان حقيق بستر الله ومغفرته) .

وقوله : (والمحزن أن هناك انفصالًا في علومنا الدينية بين الفقه والتصوف ...) [1].

ارتقاء بالقضية واتساع نطاقها ، فكلا الصنفين يؤول أمرهما إلى الإفراط والتفريط .

وتأمل تشابه البناء بين : (والمحزن أن ...) وقوله (والعلة أن ...) وهو أسلوب اعتاده الشيخ حين يحلل ويعلل، وهو دأب علماء الشريعة في التماس العلة والحجة .

وفي كل أقامهما الشيخ على القصر بتعريف المسند ، كما لا يفوتك طريقة الشيخ حين بنى طرف المقابلة علي القبض والبسط. بَسط في جانب فقهاء الجمود وغلاة التعصب، وقبض في جانب المتصوفة؛ إذ اكتفى بالإشارة إلى حالهم (مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانًا إلى الجنون) ولعله أراد بذلك الإشارة إلى خطورة الطرف الأول في الاقتداء بأفعالهم وأقوالهم. ونظرة العامة إلى كل ما يصدر عنهم أنه دين، بينما غلاة الصوفية لا حاجة إلى بسط القول في بيان فساد أمرهم وانحراف منهجهم وابتداعهم .

والفقرة وقعتْ موقع الجملة الاعتراضية بين كلامين. بناها على المقابلة بين طرفين منوط بهما تطبيق تعاليم الإسلام؛ ليشير إلى أن وسطية تعاليم الإسلام وشرائعه لا تكفي، وإنما الدين بحاجة إلى فهم سديد ورأى رشيد وعقل

(١) المرجع السابق . ٩٦.

حكيم وروح وثّابة تُنير درب هذا التطبيق. فدين الله ليس بإفراط فقهاء الغلو والتشدد، وليس بتفريط غلاة الصوفية وانحرافاتهم .

ويحاول الشيخ جاهدًا تأطير كل ما يمس حياة المسلم في دينه ودنياه بإطار الوسطية، فيشير إلى انفساح دائرة الوسطية، وإحاطتها بكيان المجتمع المسلم اجتماعيًّا واقتصاديًّا بقوله: (والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ...)[1] الواو هنا عاطفة، وهي التي تعطف معنى ما بعدها على ما قبلها .

وتأمل تركيب العبارة التي جعلها رأسًا لهذه الفقرة (والوسطية فضيلة تبرز ...) وقد يوهمك ظاهر العبارة تكرار المعاني، وكأنه يرجع الكلام ويعيد أصل القضية بألفاظها وصياغتها.

انظر قوله: (والإسلام دين وسط ...)

وقوله: (إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة ...)

وقوله هنا: (والوسطية فضيلة تبرز ...)

وإذا أدرتَ جُمَلهُ برأسك ، ووضعتَها تحت ذائقة لسانك تبين لك تبايُن صورة المعنى ومخالفته في كلٍّ عن الأخرى .

ولعلك تلحظ صعود منحنى التوكيد إلى ذروته في الجملة الثانية، ثم هبوطه في الثالثة كما الأولى .

ففي الأولى: اكتفى بمجرد الإخبار بالجملة الاسمية وفيها . كما تعلم . ما ليس في الفعلية من التوكيد والثبات والدوام ، أفاد أن الإسلام دين له هيئة وصفة ثابتة لا يشوبه انحراف حين جعل الوسطية صفة لازمه لا ينفك عنها الدين وإن تطاول الزمان واستطال .

(١) المرجع السابق . ٩٦.

أما في الثانية : فإنه زاد من وكادة الجملة الاسمية بـ (إّن) وهو أسلوب يقطع به طيف ريبٍ أو شكٍ يتوهمه معاند ، ونكران يرمي به مجادل لشمول وسطية الإسلام للدين والدنيا جميعًا .

ثم إنه أخذ بجملة فعلية فعلها مضارع (يجعل التوسط فضيلة) «وقد قالوا إنَّ كل ما خبره جملة يفيد التقوي»[1].

وكأن الإسلام بعقيدته وشريعته كائن حي تتجدد شرائعه وتعاليمه، وتسري الروح في شقيه الدين والدنيا. فحيثما انتزعت هذه الروح منه كان جثة هامدة لا يحيا ولا يحيا به غيره كما هو الحال في الأديان السابقة .

ثم إنه في الثالثة: (والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام ...) أتى معناه على هيئة تروق لك وتعجب. تراه جرَّد الوسطية وأقامها كيانًا شاخصًا مستقلًا بذاته، ماثلًا تشرئب هامته زهوًا واختيالًا في تشريعاته الاجتماعية والاقتصادية. حتى لكأنها طغت على ما عداها من سمات الإسلام الأخرى .

وهكذا تجد معاقد الكلام، وقد تشاربت وتآزرت، فعاد بالمعنى على أول مقالته (والفضيلة وسط بين رذيلتين) وكأنه يضع اللفظ بيمينه ما يرمقه بصره في درب معانيه، فلا نرى أسلوبًا مهترئًا، أو نسجًا يختل، وإنما صياغة تشي بحس رهيف .

هكذا أبان الشيخ أن الإسلام أرسى قواعد البناء للمجتمع المسلم وفق منهجه الوسطي، وجعل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية تدور في فلك الوسطية بقوله: (والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلًا أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد !

(١) خصائص التراكيب . ٢٩٩.

البيت هو المحضن الذي تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده، وليس البيت سجنًا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا، وليس ملتقى عابرًا للأبوين والأولاد كما تألف ذلك في أوروبا حيث الأسر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة، فهي تتعلم وتعلم، وتتداوى، وتأمر وتنهى، وتبايع ، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمر الدفاع، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية ... ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة) [1].

وإنما خص الشيخ الأسرة والاقتصاد بالذكر؛ لأنهما دعامتا صناعة وبناء أي مجتمع ناجح إذ إن :

١) الأسرة هي لبنة المجتمع ووحدة تكوينه والأم عمودها وركيزتها.

٢) والمال قوام الحياة وعصب أمرها.

وراجع بناء الكلام لترى كيف أحكم الشيخ نسجه وأوثق عُراهُ ؟ وتأمل كيف أوجز معناه وضم نواشره بجملة واحدة قذف بها في عقلك وروحك رؤية الإسلام وتصوره الوسطي للمرأة ومكانتها في المجتمع ؟ وكيف كان التضاد أداة ذكية ناطقة مبيّنة يسلم لها العقل والوجدان حين طابق بين (الرجال . النساء)، (حبيسة . طريدة) ثم استدعاء كلمتي (السجان . الصياد) في الجملة الثانية لملاءمة طرفي الطباق في الجملة الأولى ، وهو ما يسمى بـ «مراعاة النظير» ؟ !

واحتوى ذلك كله في قالب الجمع ليردفه عاجلًا بحسن التقسيم لاستيعاب القسمين. ليدلك بهذا السبك كيف صارت الجمل المتباعدة والمتنائية أشد تآلفًا من المؤتلف في الأصل.

---

(١) المرجع السابق . ٩٦ ، ٩٧.

ثم انظر كيف بنى الجملة على الاسمية وأتى بـ(الفضيلة) وصفًا للمبتدأ، ثم جعل الخبر جملة فعلية فعلها مضارع (تبرز) ، فكأنك تشاهده عيانًا بارزًا ظاهرًا في تجدد واستمرار، وكأنه استبطن الفعل هذا المعنى؛ ليشير إلى أن منهج الوسطية ظاهر بيّن برأسه، دالّ بنفسه على نفسه. لا تُخطئه عين إنصاف لأهل المعرفة الحقَّة ، ولا ينكرهُ إلا أهل الباطل وأصحاب الفكر المختلط .

ثم لا يفوتك كيف رجع بهذه الجملة (والوسطية فضيلة تبرز ...) إلى رأس المقال (الفضيلة وسط بين رذيلتين ...) وكأنه أراد بهذه الملاءمة التقاء طرفي الكلام ومقابلة أول الكلام بآخره؛ ليغلق دائرته، ويتشابك طرفاها.ابتدأ بقوله: (والفضيلة وسط ...) وانتهى بقوله:(والوسطية فضيلة تبرز ...)؛ ليحيط كلا الوصفين بالآخر .

فضيلة ← وسط

الوسطية ← فضيلة

وكأن الدائرة قد تمت وتحددتْ أقطارها واحتوت الوسطية مناحي الحياة دين ودنيا .

ثم يُفرع على هذا المعنى قوله : (ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى الإسلام أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد !)

قدم الجار والمجرور ، وجعل الفعل (أبى) رأس المعنى بما يفوح به من معاني الرفض في إباءٍ واستعلاءٍ ممن انحرف بإفراط أو تفريط عن وسطية الإسلام في معاملة المرأة وتأصيل مكانتها الاجتماعية .

حينئذ تبدد دهشتك لمجيئه بمفعولين لهذا الفعل ، وأن يكون كل منهما مؤولًا بمصدر (أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته) و (أن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!)

ففيه تأصيلٌ وتفصيلٌ لما وقع عليه أثر الفعل، ليزيد في تنفيره وتبغيضه لكلا الأمرين سواء أكان فعلًا أم مجرد تصور مقبور بين أضلع الصدور. وهذا ما لا تجده لو أتى بالمفعول على غير هذا الوجه، كأن يقول: « أبى حبس المرأة أو طردها من البيت ».

وهكذا تجد الشيخ الغزالي يهدم هذا الفكر الفاسد الذي لُزَّ – من قولهم: لَزَّهُ يلزُّه شده وألصقه وقرّبه . وخامر الناس منه إما بعرف طغت عليه البداوة أو ممن أساؤوا إلى دينهم بفساد تطبيقهم النصوص وجمود تفسيرهم لروحه، وإما باقتفاء خُطى الغرب في انحلاله .

وإن هؤلاء لو اتبعوا أحكام دينهم وأنصفوا المرأة الانصاف الذي عليه تلك الأحكام لما أصابها حَيف استنادًا إلى قول الحق سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] وقوله ﷺ : « إنما النساء شقائق الرجال»[2] ومن هذا يتبين مدى سماحة الشريعة الإسلامية، والضلال الذي يسير عليه بعض المسلمين، والتي هي منه براء .

وتأمل كلا الوصفين (حبيسة . طريدة) ورفض الإسلام لهما، فلا هي سلعة أو قطعة أثاث من أثاث البيت أو مذنبة تتحدد إقامتها فتلزم البيت، ولا يرضى لها أن تكون خارج بيتها فريسة تطاردها الذئاب، وتتناوشها أيدي العابثين. وإنما وضع الإسلام إطارًا وتصورًا وربطًا بين وظيفة المرأة الأصلية في بيتها، ثم خروجها بقيود وشروط .

---

(١) البقرة– ٢٢٨.

(٢) شرح سنن أبي داوود، تأليف: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين المقدسي الرملي الشافعي(ت٨٤٤هـ)، تحقيق: عدد من الباحثين بدار الفلاح ٣٥٧/٢ – دار الفلاح مصر –ط١٤٣٧،١هـ– ٢٠١٦م.

وهو ما فصّله الشيخ مستأنفًا بقوله: (البيت هو المحضن الذي تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد، وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده ...) وبقوله: (وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ...)

أرأيتَ كيف قابل بين حالين للمرأة ، مكوثًا في البيت وخروجًا ؟ وكيف جعل الجملة الأولى (البيت هو المحصن ...) تِبيانًا وتوضيحًا وامتدادًا لقوله: (أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته !) ؟

وجعل الثانية (وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ...) لتوضيح الهيئة والحال التي عليها أجاز الإسلام خروجها من بيتها .

ثم تأمل المفارقة في الصياغة والحفاوة الشديدة التي أولاها لبناء الطرف الأول للمقابلة دون الطرف الثاني .

ففي الأول: (البيت هو المحضن ...) لما كانت الأمومة هي مهمة المرأة الأصلية ووظيفتها الفطرية عقد بناء الجملة على أساس متين تراه في أمرين من التوكيد والتخصيص .

أولهما: ضمير الفصل بين المبتدأ وخبره بقوله: (هو المحضن) أي هو خاصة لا غيره، فقصر صفة المحضن عليه.

وثانيهما: اسم الموصول (الذي تتولى فيه تربية الجيل الجديد ...) فقصد بذلك رسم ملامح هذا المحضن ورسالته في الجمع بين بناء الجسد والروح، فالقوت نماء الأول، وتزكية الثاني بدين الله وتعاليمه .

وقوله: (وليس البيت سجنًا ...)، (وليس ملتقى عابرًا للأبويين والأولاد ...) نفي صريح ينص على معنى تضمن في الكلام السابق؛ لأنه إثبات، فقصر وصف (المحضن) على (البيت) وبيان ماهية هذا الوصف بصلة الموصول نفيٌ ضمنيٌ لأن يكون البيت سجناً أو ملتقًي عابرًا .

وهذا مسلك في البيان دقيق بقصد تجلية الحقائق وتوكيدها في نفس السامع، فيتعاورها حينئذٍ الإثبات والنفي جميعًا . وهو ضرب من ترابط الجمل، وتشابك المعاني ، وهو من حسن البيان بمكان .

وإذا كان فاقد الشيء لا يعطيه لغيره ، فمن يُربّي ومن يُعلّم إذا كانت الأم جاهلة ؟!

وتأمل كيف أكد المعنى الحقيقي للبيت ووظيفته (المحضن) بالمقابلة بين الجملتين المعطوفتين (وليس البيت سجنًا)، (وليس ملتقى عابرًا) لذا كان لزوم المرأة لبيتها وسطًا بين الحالين .

ـ ليس سجنا كما تفرضه بعض الأعراف والبداوات أن تخرج من بيت أبيها إلى زوجها ثم إلى قبرها. فهذا الفعل من أخسّ ضروب السلوك، وبه تسقط الحياة الزوجية في مستقر الجحيم .

ـ وأيضا (ليس البيت ملتقى عابرًا ...) كما هو حال الأمم الغربية من التمزق والانحلال والتفكك الأسري. والويل كل الويل لأمة ضيعتْ أبناءها .

وقوله : (وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ...) بالعطف على (البيت هو المحضن ...) أرى هنا مقابلة ظاهرة بين الجملتين، ولك أن تلحظ دقة النسج وإحكام السبك لبنائه معناه مع الإيجاز .

انظر كيف قدم شبه الجملة (وللمجتمع حظ ...) لينبه إلى أن المجتمع هو من يُحرَم أولًا من عطاء المرأة، فالخسارة عامة قبل أن تكون خاصة، ثم إنه قال: (حظ) وأتى به نكرة ليؤكد على وظيفة المرأة ورسالتها الفطرية « الأمومة » فهي أعظم عمل للمرأة وبه تستحق أعلى الدرجات .

وقوله: (فهي تتعلم وتُعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتُبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمر الدفاع ، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية)[1].

الفاء للترتيب والتفريع، فأداء المرأة لواجب الأمومة لا يمنع من أن تقوم بأي عمل آخر يحقق لها الخير ولأمتها على أن لا تُضّيع عملها الأول ولا تهمله وإلا كان الضياع للأمة .

---

(١) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٦.

ولإرادة التنوع بين الأحوال أبرز الطباق سلاسة ومرونة التقلب بينها .

كل هذه الأحوال بُنيت على مبدأ المساواة العامة بين الرجال والنساء، والتي أرسى قواعدها الدين الحنيف بقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] وهي مساواة عامة لا مطلقة تتوافق مع ماهية وطبيعة الخلقة لكلا الطرفين . لذا انعكس هذا المبدأ واستنبطه الشيخ في صوغ إباحة مشاركتها في الجيش في التطبيب والدفاع بقوله: (وقد تشارك ... وقد تقاتل ...) [2] و(قد) هنا تفيد الشك، فأبان أنه حال استثنائية إن استحكمت الأحوال واستغلقت .

ثم ارتفعت نبرة التوكيد في قوله: (وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية) [3]. تأمل كيف آثر لفظة (خبيرة) دون غيرها ليؤكد على تفاعل المرأة المسلمة مع أمتها علمًا ودراية،

تعيش دنياها بدينها. وإلا فأي شيء سوف تعلمه وتغرسه في فلذات أكبادها، ولذا قال البشير الإبراهيمي: « إذا جهلت المرأة أتعبت الزوج ، وأفسدت الأولاد، وأهلكت الأمة »[4].

وهكذا تجد نبرة التوكيد تعلو وتهبط في مراقبة دقيقة وبالغة لمواقع المعاني في النفوس وما تنطوي عليه دواخلها .

وقوله: (وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه ... في الوقت الذي أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافاً شائناً في الذوبان خارج البيت ، وضد رسالتها الأولى)[5].

استئناف بياني لتعامل المسلمين وتطبيقهم لتلك التعاليم .

---

(١) سورة البقرة –آية ٢٢٨.

(٢) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٦.

(٣) المرجع السابق . ٩٦.

(٤) الآثار ٣٨٤/٣.

(٥) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٧.

ثم أكد الكلام السابق، ونفَّر من المخالفة بجملة شرطية مختصرة: (لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين معًا) [١] وقد وقعت الجملة الشرطية موقع التذييل للتوكيد والترغيب.

وتأمل جواب الشرط والجمل التي دخلت في حيّزه، وكيف تشابكت تشابكًا ظاهرًا كما ترى. فجواب الشرط مكونٌ من ثلاث جمل تدرجت، وتناسل بعضها، وبُنيت على حذوٍ واحدٍ من البناء ، زادها تنغيم الآداء تماسكًا ووكادةً.

تأمل كيف جعل الجملة الأولى أمًّا تناسل منها ما تلاها . ذكر أولاً: (أرضى لله) وما ظنك بأمة عاشت في كنف الله ورضاه كيف يكون حالها ؟ وهو ترغيب يحمل في طيه رهبة المخالفة لأمر الله إذ إن من خالفه كان لسخط الله أقرب .

ثم (أسعد للأمة) فإذا رضي الله هدانا الصراط المستقيم ، وأسعد الأمة في مجموعها تتلاقى روابطها، وتتوثق عُراها. ثم (أزكى للجنسيين معًا) في استباق الودّ بين الزوجين، وأقطع لأسباب العداوات والإحن التي تهدم البيوت وتُقَوّض أركانها، والأسرة لبنة المجتمع الأولى إذا به تتأثر رخاءً وفقرًا، سعادةً وكربًا. وجماع ذلك كله في اتباع أمر الله، ففيه النجاة وفيه الفلاح.

والواو في قوله: (وهناك من يأبى على المرأة ...) واو الاستئناف التي يستأنف بها الكلام معنىً جديدًا. هذا المعنى الجديد بيان لحال من أبى وأسرف في منح المرأة حقها إفراطًا أو تفريطًا.

وتأمل تشابه البناء بين قوله: (هناك من يأبى على المرأة هذا كله ...)[٢] وقوله: (هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ...) [٣]

---

(١) المرجع السابق . ٩٧.

(٢) المرجع السابق . ٩٧.

(٣) المرجع السابق . ٩٥.

وأيضًا تشابه البناء وموقع الكلام بين (لو التزمنا وسطية الإسلام ...)[١] وبين (لو ألف علم القلوب، وذاق الجانب العاطفي من الإسلام ...) [٢] فكلا الشرطين أتى تذييلًا لبيان ثمرة الوسطية ومآلها وفضيلتها.

ثم انظر إلى دلالة الفعل (يأبى) وإسناده إلى بعض المسلمين في قوله: (وهناك من يأبى على المرأة ...) وقوله في بداية الكلام (أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت ...) [٣] عائدًا بالضمير على الإسلام؛ ليضع لك مقابلة ظاهرة بين إرادة الشرع، وإرادة المخالفين؛ لتعرف ما بين الإبائين من تقاليد وأعراف ومفاهيم خاطئة لنصوص الدين كانت من وراء هذا التأبّي لاتباع أمر الله ورسوله ومخالفتهما.

وقوله: (وفى الناحية الاقتصادية أقرّ الإسلام حق الملكية الفردية) بالعطف على قوله:(ففي العلاقة بين الرجال والنساء ...) [٤] بيان لصبغ الإسلام ركيزةَ الحياة وهي المال بصبغة الوسطية؛ ولترى كيف أبان عن وسطية الدين في حق تملّك الأفراد دون أن يذوبَ هذا الحق في ملكية المجتمع العامة بقوله: (أقرّ حق الملكية الفردية، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين) [٥].

تأمل بناء المعنى على المجاز حيث شبه هذا الحق بحصان جامح ، وجعل من الحلال والحرام قيدًا ولجامًا يكفكف بهما من غلواء النفس وحبها لجمع المال وكنزه. إذ إن الإنسانَ مجبول على حب المال والحرص على اقتنائه.

---

(١) المرجع السابق . ٩٧.

(٢) المرجع السابق . ٩٦.

(٣) المرجع السابق . ٩٦.

(٤) المرجع السابق . ٩٦.

(٥) المرجع السابق . ٩٧.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾[1] وما يترتب على ذلك من مفسدة لو أطلق له الحبل على غاربه. **هذا هو القيد الأول.**

والقيد الثاني: (وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين)

تأمل دقة العبارة (وانتقص أطرافه) وما دلت عليه من سماحة الإسلام في عدم المساس بأصول الأموال.

وانظر إلى بلاغة الاستدراك بهذه الصيغة (بيد أن ...) وكيف جمعت طرفي جملتين تقابلتا معنويا، مثلت إحداهما: تقييد تكسب المال من وجوه الحلال دون الحرام. والثانية: تقييد الإنفاق وبذل الزكاة والصدقات، فتصير الزكاة والصدقات من الربح دون أصل المال .

وقوله : (وبذلك ضمن إنتاجًا غزيرًا؛ لأن الحوافز قائمة، وحفظ الجماعة من التفكك؛ لأن التواصي بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سَدَّها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة، والرأسمالية الجائرة) [2].

وجاء مؤكدًا لما سبق؛ لأنه تعليل يستبطن الحكمة الظاهرة لهذا التوسط في حق التملك لأفراد المجتمع، فلا إفراط في كسب المال من حلّه وحرامه ، ولا يسوغ أن يهضم مجموع المجتمع ويجور على ملكية الفرد تحت أي مسمى من الصدقات والزكاة . وكأن نفس المتلقي تطلعت إلى الحكمة والفائدة المترتبة، وكان لتشابه البناء بين الجملتين جمالًا كسا به المعنى، وزاد من جودة السبك ومتانة الأسلوب، فذكر الفائدة ثم أتبعها بعلتها:

١) ضمن إنتاجًا غزيرًا لأن الحوافز قائمة.

٢) حفظ الجماعة من التفكك؛ لأن التواصي لم يدع ثغرة إلا سدها.

---

(١) سورة العاديات آية- ٨.

(٢) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٧.

والجملة الأولى امتداد لقوله: (أقر الإسلام حق الملكية الفردية) والثانية امتداد لقوله: (انتقص أطرافه ..) ثم عطف عليهما قوله: (ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة، والرأسمالية الجائرة) .

دقق كيف تلاقت أطراف الكلام حين عاد بقوله: (ونجت الشعوب من الشيوعية) إلى قوله: (أقر الإسلام حق الملكية الفردية)، فالشيوعية رأس فكرتها هضم حقوق الأفراد لصالح المجتمع والرأسمالية على النقيض، وفيها تقديس حق الفرد على حساب المجتمع .

وهكذا ترى تشابك المعاني واتحاد أجزائها وشدة ارتباط ثانٍ منها بأولٍ حتى تتلاقى وتتضام، لأنه أقام التشابك والترابط على هيئة مقدمات ونتائج ترتبط فيها الجمل ارتباط السبب والعلة. وهذا الأسلوب يشبه أسلوب ابن المقفع، فكل فكرة مرتبطة بعلتها، وهذه العلة مرتبطة بما يؤكدها.

*** *** ***

المحور الثاني

" طرائق تشكيل النص في إظهار الحزن والأسى على واقع المسلمين بين انتكاسهم عن التمسك بحبل هذا الدين، وارتكاسهم في ذيل الأمم "

من الفقرة (والمفروض أن المسلمين يتعلمون من بينهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها ...) إلى قوله: (بل لقد أصبحت اليوم ذيلًا لأحزاب الميمنة والميسرة في الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم)[1].

والواو واو الاستئناف لعطف معنى ما بعدها على ما سبق ذكره، وهو التصور الشامل والفهم العميق لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها الحنيفية السمحاء في المحيط الشامل لدنيا المسلم ودينه .

وهو استئناف لبيان تبعة هذا التشريف، وهذه الخيرية بأن جعلهم الله أمة وسطًا .

وقد اشتدت العبارة، واحتدّ الأسلوب ورام به رومًا آخر. أرأيت هذا الاستئناف (والمفروض أن المسلمين ...)، والقوة التي تحسها النفس من هذه التهيئة بأن ما سيأتي بعده كلام له خطر عظيم؟

راجع الكلام وكيف بنى المعنى على القصر بتعريف المسند (والمفروض ...)؟ وكيف أشعرك بهذه اللفظة غياب مدلولها « الخبر »، ثم أقام الخبر على جملة اسمية مؤكدة بـ (أنَّ) وجعل خبرها ثلاث جمل فعلية فعلها مضارع (يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق)، (ويعونها)، (ويطبقونها)؟

ثم تأمل كيف قام المعنى في نفس الشيخ، فبنى خبر (أنَّ) على التدرج فيما فرّط فيه المسلمون؟ فذكر أولًا تفريطهم في تعلم أحكام دينهم وتعاليمه، ثم انتقادهم لحسن فهم نصوص الشرع، ثم إعراضهم عن التطبيق، وإنزال هذه الأحكام على حياتهم .

---

(١) المرجع السابق . ٩٧.

وجملة (فإن الله سائلهم) مرتبة ومعللة لما قبلها، ولترى كيف نفخ وأَوْرى زناد النفس، فليس هناك أقوى ولا أزخر لها من تمثل العرض على الله . عز وجل . والوقوف بين يديه للحساب.

(وهل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟) فأنزل الاستفهام موقع التذييل لتأكيد مضمون ما سبق .

وقوله: (وما من أمة إلا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[1].

انتقال من الخصوص إلى العموم ، لأن مقتضى هذا أن يكون الكلام مسوقًا لجميع الأمم. وهو استئناف لتأكيد هذا السؤال وبيان هوله وشدته، فلا موضع لقول كذب أو تملّص من قول الحقيقة، إذ من وراء سؤالهم شهادة من لا ينطق عن الهوى . ﷺ.

وقوله: (نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة، وسيدلي بهذه الشهادة أمام الله ...) [2] استئناف بياني؛ لأن السامع يتساءل عن الحالة المبهمة المدلولة بقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ ويتطلب بيانها . فجاءت هذه الجملة في صدر جواب لسؤال مقدر: كما أن المسلمين سيسألون، هل علموا كما تعلموا ؟ راجع إلى قوله: (هل انتفعوا بها ونفعوا الناس ؟) لتأكيد المعنى وهو أن هذا التشريف لهذه الأمة منوط بالنفع والانتفاع وبالتعاليم والتعلم والبلاغ .

---

(١) سورة النساء . ٤١.

(٢) مائة سؤال وجواب عن الإسلام . ٩٧.

وقوله: (وهم شهداء على الأمم ...) استئناف بياني لقوله: (إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد !) فكأنه أتى به كالعلة لهذا التكليف .

ثم علل المعلل بقوله: (لأنهم حملة الرسالة العامة، ومبلغوا «الوسطية» التي شرحناها آنفًا وكما كان محمدٌ أستاذًا لهم، فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض) [1].

تأمل الجمل الثلاث والتي أتت في سياق التعليل، وكيف أكدت المعاني السابقة؟ فقوله: (حملة الرسالة) عائدٌ على المسلمين (يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق، ويعونها ويطبقونها) .

كما أن قوله: (مبلغوا الوسطية) تأكيدٌ لمضمون السؤال السابق (فإن الله سائلهم ...) وأيضا: (هل علموا كما تعلموا ؟)

والجملة الثالثة: (وكما كان محمد أستاذًا لهم فهم أساتذة ...) تربعت على سقف المعنى، فالرسول شهيد بين أمته، وأمته شهداء على باقي الأمم وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2].

هنا معقد إجابة السؤال « عنوان المقالة »: ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطا ؟

تأمل كيف تدرج فذكر الوسطية وأبان فضيلتها ، ثم ذكر آلة التشريف وعلة الخيرية «وسطية منهج الإسلام وشريعته بين الأديان الأخرى »، ثم جلّى قيد هذه الخصِّيصة وشرط التميز بها وهو البلاغ ؟

وقوله: (والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرَّطت في البلاغ والتعليم! بل فرَّطت في العمل والتأسي بنبيها، بل لقد أصبحت اليوم ذيلًا لأحزاب الميمنة

(١) المرجع السابق . ٩٧.

(٢) سورة البقرة . ١٤٣.

والميسرة في الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم) [1] استئناف لتأكيد المعنى السابق (والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم ...)

تأمل كيف تشابه البناء فأتى بالمبتدأ معرفًا بالألف واللام لقصد التخصيص، ثم جعل الخبر جملة اسمية مؤكدة بـ (أَنَّ). وجعل في الأولى خبرها فعلًا مضارعًا (يتعلمون)، (يَعُون)، (يطبقون) بينما جعل الخبر هنا فعلًا ماضيًا (فرطت)، (فرطت)، (أصبحت) زيادة في التحسر والتأسف لحال المسلمين وتنكبهم لصراط الله المستقيم .

وبينما أقام خبر (أَنَّ) هناك على التدرج صعودًا «تعلم ⟵ وعي ⟵ تطبيق وبلاغ» أقام الخبر هنا على التدرج هبوطًا وانحدارًا. تأمل كيف ذكر تفريط المسلمين في بلاغ الأمم وتعليمهم، ثم انحدر إلى تفريطهم في العمل والتأسي، ثم الانسلاخ كلية من هذا الدين وانحرافها يمنةً أو يسارًا عن الصراط المستقيم لترى حرارة هذا المعنى في الحفاوة بالصياغة وجودة السبك التي أتت عليها (بل لقد أصبحت ذيلًا ... ونسيت الصراط المستقيم).

هل رأيت الأسف وكيف تتفجر به لبنات التركيب فأكده بحرف التحقيق متصلًا بلام التأكيد وأدخلها على الفعل (أصبح) للدلالة على انقلاب الحال. وانظر إلى مقدار التهكم والذلة التي أودعها في كلمة (ذيلًا) وإيحاء هذه الكلمة وإشارتها إلى أن الذلة والصغار في البعد عن منهج الله القويم، وصدق الحق . جل شأنه . :﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[2].

*** *** ***

(١) مائة سؤال وجواب عن الاسلام . ٩٧.

(٢) سورة فاطر . ١٠.

الخاتمـــة

من خلال دراستي للمقالة اتضح لي ما يلي :

- أن الشيخ الغزالي اعتمد في تناول موضوع المقال منهج التخلية قبل التحلية، وأخيرًا التجلية، فأبان عن ضلال اليهود والنصارى وفساد عقيدتهم، ثم بنى على ذلك محاسن دين الإسلام ووسطية منهجه، مُجليًا أبعاد ودلالات الوسطية وتبعاتها .
- لغة الشيخ غاية في الدقة والسهولة لا تجد فيها غموضًا في صياغة معانيه أو أفكاره ، فقد تسلسلت مقالته بلغة رصينة مُبينة، فلا نبوّ في ترتيب نتيجة على مقدمة، ولا أَمْتًا في استنباط فكرةٍ وخلوصها من أخرى .
- الإيجاز مع الاكتفاء إن قصرًا أو حذفًا. والإيجاز هنا مقتضى حال اعتمده الشيخ وقصده قصدًا، فقد شكلت المقالة بجملتها ومضات فكرية استطاع بها الشيخ أن يلمَّ بأطراف موضوع جدير أن تُفرد له رسائل وتُسوّد فيه صفحات أسفار دون أن يُخلّ، فكانت المقالة عصارة نفس، وحصاد فكر، وفصل الخطاب في بيان وسطية دين الإسلام .

فكل فقرة من المقال أفرد لها قلم الشيخ مصنفًا وربما تعددت مواطن تناوله لموضوعها في أكثر من مؤلف .

- التضاد : وهو ركن ركين في أسلوب الشيخ للإقناع والإمتاع معًا، فهو ينتزع من الضد محاسن الضد أو مساوئه فلا يجد المخاطب أمامه إلا الاقتناع عن رشد وبينة.
- حسن التقسيم والتفصيل من بعد إجمال: وهو أسلوب كان له بالغ الأثر في تماسك بنية النص وتحدره في سلاسة وانسياب. والذي أريد أن أنبّه إليه: أن طريقة الشيخ في بناء النص ظاهرة في المقالة كلها، وهى قبض المعاني ثم بسطها، أو إجمالها ثم تفصيلها . وهذا القبض

أو الإجمال يقع جملة أو جملتين في صدر فقرة من فقرات المقال، ثم تكون الفقرة كأنها شرح وبسط وتفصيل لهذا الإجمال. وهكذا يستمر البناء في تحليل المقاصد الجزئية يجملها ثم يفصلها ويكون هذا الإجمال المتكرر من حيث الطريقة أولًا، كأنه معاقد تلمّ شعث الكلام، ومن حيث اللفظ ثانيًا. خذ مثلًا قوله: (والإسلام دين وسط ...)

- ◈ الاستئناف: وهو وسيلة ربط لفظية وعقلية برع الشيخ في توظيفها من أجل تماسك النص ووصل أواصره، وانسجام نسجه. فبدراسة المقالة اتضح جليًّا رؤية الاستئناف يتكاثر في معاقد الكلام ومفاصله ، إذا كانت المقالة كأنها دفقات كدفقات الموج تحددت مفاصلها تحديدًا ظاهرًا، وتماسكت كل مجموعة منها تماسكًا واضحًا، ثم ارتبطت كل مجموعة بالتي تليها مرةً بالواو، ومرةً بدونها.
- ◈ التمثُّل والاستشهاد بنصوص من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف لتأصيل آرائه وجعلها سندًا. فقد أتت متماهية في نسيج عبارته وبناء كلامه. فتحقق بذلك الانسياب والاندماج والتوافق .
- ◈ تعدد البناء اللغوي للمقالة وتنوعه بين الاسمية والفعلية ، وبين الجمل القصيرة تارة والطويلة أخرى .
- ◈ تكرار بعض الصيغ في كلامه مثل التعريف بالألف واللام في بعض تعبيراته مثل (والمحزن أن ...، والعلة أن ... ، والمؤسف أن ...) وهكذا يتجانس التعريف بين المقاطع التي وردت بها هذه التعبيرات تجانساً خفيًّا ودقيقًا .
- ◈ امتلك الشيخ ملكة بيانية اقتدر بها أن يزاوج بين العقل والعاطفة، وبين الفكر والوجدان على الرغم من قدرته الفكرية التي لا تتوافر إلا له ولمن على طرازه من الكتاب والأدباء . يدلك على ذلك منطوق لفظه ومخطوط كلامه الذي كساه بألوان شتى من وشي البيان ، فكثر عنده

المجاز اللغوي (وجاء الإسلام فرفض المسلكين... يكره ... ويجب... وأقر العقاب ... إلخ) .

كما زاوج بينه وبين المجاز العقلي (الطاقة المستكبرة ...المعصية النادمة ...الحماس الكاذب).

التوصيات

يوصي البحث بإدراج نصوص الشيخ ومن في طبقته من العلماء الذين جمعوا بين الفكر والأدب إلى الدرس البلاغي حتى تتحقق الفائدة بطرفيها بالجمع بين دراسة اللغة والحفاظ عليها وبين تربية النشء والأجيال على ثوابت الدين الصحيح .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) الإيضاح للخطيب القزويني ، حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص . دار السرور . بيروت . لبنان .

٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع . تأليف : عبد المتعال الصعيدي . م الآداب . ٢٠٠٥ م .

٣) البيان والتبيين، تأليف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء أبو عثمان الشهيد بالجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) . دار الهلال . بيروت ١٤٢٣هـ .

٤) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان . د. محمد محمد أبو موسى . م. وهبة . ط ٦ ، ٢٠٠٦م .

٥) التعريفات للشريف على بن محمد الجرجاني . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م .

٦) تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور . الدار التونسية للنشر – تونس– ١٩٨٤م .

٧) جهاد الدعوة للشيخ محمد الغزالي . دار نهضة مصر . القاهرة . ٢٠٠٥م .

٨) دلائل الإعجاز . للإمام عبد القاهر الجرجاني . تحقيق أبو فهر محمود محمد شاكر . م. المدني . القاهرة . ١٤١٣ هـ . ١٩٩٢م .

٩) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تأليف:أبو الحسن على بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق : إحسان عباس . الدار العربية للكتاب . ليبيا . ط١ – ١٩٧٩م.

١٠) شرح سنن أبي داوود، تأليف:شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين المقدسي الرملي الشافعي(ت٨٤٤هـ)،تحقيق:عدد من الباحثين بدار الفلاح – دار الفلاح مصر –ط١٤٣٧،١هـ– ٢٠١٦م.

١١) شروح التلخيص . دار السرور . بيروت . لبنان . بدون .

١٢) الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود- مسعود بن موسى الفلوسي-١٩- مكتبة وهبة- القاهرة،ط١، ٢٠٠٣م.
١٣) الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية - د. محمد عمارة - دار السلام للطباعة ، ط ١، ١٤٣٠هـ. ٢٠٠٩م .
١٤) علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع . د / بسيوني فيّود . مؤسسة المختار، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م .
١٥) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، تأليف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي الدمشقي الحنبلي . المدينة المنورة . ط ١ ، ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م .
١٦) الفقية والمتفقه ، تأليف: أبو بكر أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق : أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي . دار ابن الجوزي . السعودية . ط ٢ . ١٤٢١هـ .
١٧) قراءة في الأدب القديم . د. محمد محمد أبو موسى . دار الفكر العربي . ط ١. ١٩٧٨م.
١٨) كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر لأبي الهلال الحسن بن عبد الله العسكري ت ٣٩٥ هـ . تحقيق: على محمد البجاوي- محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الفكر العربي - ط٢- بدون.
١٩) لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري . دار صادر . بيروت . لبنان . ط ٦ . ٢٠٠٨م .
٢٠) مائة سؤال عن الإسلام . الشيخ محمد الغزالي . ط نهضة مصر . ط ٤ . ٢٠٠٥م.
٢١) ما يُقال عن الإسلام . عباس محمود العقاد . مكتبة دار العروبة . مطبقة المدني . ط ١ . بدون.
٢٢) محمد الغزالي بقلمه . موسوعة خطب محمد الغزالي . دار الاعتصام . القاهرة . ط ١ ، ١٩٩٠م .

٢٣) مدخل إلى كتابيْ عبد القاهر . د/ محمد محمد أبو موسى . م. وهبة . ط ١ . ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م .

٢٤) المطول . شرح تلخيص مفتاح العلوم، تأليف: سعد الدين التفتازاني ، تحقيق د / عبد الحميد هنداوي . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.

٢٥) موقف الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي من السنة النبوية . محمد سيد أحمد شحاتة . دار السلام للطباعة . ط ١ . ٢٠٠٩ م .

٢٦) يسألونك . محمود عباس العقاد . دار الكتاب العربي لبيروت . لبنان . ط ٢ . بدون.

*** *** ***